مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٦)

شرح الكلمات:

يقرض-أقرضه: قطع له قطعة؛ أعطاه قرضًا (الأقرب). القرض: القطع؛ وهو ما أسلفه الإنسان من إحسان أو إساءة. وليس من الضروري أن يكون مالا. يقول الشاعر أمية:

كل امرئٍ سوف يُجزى قرضَه حسنا أو سيئًا ومدينًا مثلما دانَا

والقرض كل ما يتجازى به من الناس. وقرضته: جازيته. تقول العرب: لك عندي قرض حسن وقرض سيئ. وأصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليُجازى عليه. والله لا يستقرض من عوز ولكنه يبلو عباده. قال لبيد:

وإذا جُوزيتَ قرضا فاجْزِهِ إنما يَجزي الفتى ليس الجَمَل

كذلك قالوا: القرض في قوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) اسم وليس بمصدر، ولو كان مصدرا لكان إقراضا، ولكن القرض هنا كل ما يُلتمس عليه الجزاء. وقال الأخفش: يُقرض الله: يفعل حسنا في اتباع أمر الله وطاعته. والعرب تقول لكل من فعل خيرا: لقد أحسنتَ قرضي. يقولون: ولقد أقرضتني قرضا حسنا أي أدّيت إلي خيرا (اللسان).

فتعني الآية ما يلي: أولا: من ذا الذي يطيع الله في أوامره طاعة يرجو عليها الجزاء. ثانيا: من ذا الذي يعطي جزءا من ماله في سبيل الله تعالى. فكأن المعنى المشترك هو من ذا الذي يطيع الله وينفق في سبيله.

أضعافا –الضعف: أن يعطي بنفس المقدار أو مرتين. وقالوا إن هذه الزيادة على أقل تقدير. أما الحد الأقصى من الزيادة فلا يُحد. (الأقرب)

التفسير: تعني الآية: من ذا الذي يُقرض الله أحسن ماله لينمّيه الله لصالح المقرض ويزيده له باستمرار. لقد حث الله هنا المؤمنين بأسلوب لطيف على الإنفاق في سبيله، وقال: إننا لا نطالبكم بإنفاق جميع ما تملكون من مال، وإنما بإنفاق جزء منه. ثم نطالبكم بإنفاقه لنزيده، فإذا أنفقتم دينارا نرده لكم عشرة. فما أسهله من سبيل للحصول على رضوان الله وحبه وقربه!

ويجب عند الأنفاق في سبيل الله مراعاة ثلاثة أمور.

١-أن ينفق دون أي انقباض في قلبه، بل ببشاشة وطيب نفس.
٢-إذا أنفق على أحد فلا يُمنُّ ولا يثقل عليه عبئا لا يليق، بل يقول في نفسه أن الله وفقني بفضله ورحمته لفعل هذا الخير.
٣-أن ينفق أفضل ماله.

هذه الأمور الثلاثة تستنبط من الآيات التالية: قال تعالى عن المنافقين: (ولا ينفقون إلا وهم كارهون)(التوبة: ٥٤) وقال: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) (البقرة: ٢٦٣) وقال (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (آل عمران: ٩٣).

فقوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) يعني: هل منكم أحد ينفق أحسن جزء من ماله في سبيلي، بدون أن ينقبض قلبه عن الإنفاق، وبدون أن يمن على أحد بعد الإنفاق ويجرح مشاعره بأي طريق؟ إن الذين يفعلون ذلك سوف يجازيهم الله عليه أحسن الجزاء، والعمل الواحد منهم يجلب عليهم آلافا من البركات.

وقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) أسلوبُ استفهام أريدَ به التحريض والترغيب، والمراد: هل أحد ينفق في سبيل الله ليزيد الله ماله ويرده إليه.

وتعني الآية أيضا: أقرضوا عبادي قرضا حسنا. أي أحسنوا إليهم وأعينوا الفقراء منهم، لأن أحدا لا يعطي الله أبدا وإنما يعطي عباده. وإعطاء العباد يسمى إعطاء الله كما ورد في الحديث: قال النبي ﷺ (يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعدني. قال: يا رب، وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما

علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم،استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلانا فلم تطعمه. أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب. كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟ (مسلم، البر)

اعترض المسيحيون على هذا الحديث النبوي مع أن إنجيلهم ذكر نفس كلمات الحديث، فقد ورد فيه: (ثم يقول الملك للذين عن يمينه، تعالوا يا مباركي أبي، رِثُوا الملكوتَ المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم. لأني جعتُ فأطعمتموني، عطشتُ فسقيتموني،كنت غريبا فآويتموني، عريانا فكسوتموني، مريضا فزرتموني، محبوسا فأتيتم إلي. فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعا فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك. متى رأيناك غريبا فآويناك، أو عريانا فكسوناك، ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم، بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم) (متى٢٥: ٣٤-٤٥)

تبيّن هذه الفقرة الإنجيلية أن إعطاء العباد يُعتبر إعطاء لله تعالى، وكأن العبارة هنا هي (من ذا الذي يقرض عباد الله قرضا حسنا؟) ولما كان الحديث هنا عن القتال في سبيل الله في قوله (وقاتلوا في سبيل الله).. لذلك يعني قوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) أنه في أيام الحرب سوف تلحق أضرار مادية ببعض الناس فعليكم بإسداء المعروف كقرض حسن إليهم لإصلاح أحوالهم. وهذا القرض سيعتبر قرضا لله تعالى. وتذكّروا أن الله تعالى يزيد المال، ولو كان مقدار حبة، ويضاعفه أضعافا كثيرة بحيث لا تتصورونه. انظروا إلى إبراهيم كيف أنه ضحى بابن واحد في سبيل الله فوعده الله بذرية لا تُعَد كتراب الأرض لكثرتها (تكوين:١٣).كذلك رضي إسماعيل بالبقاء في واد غير ذي زرع لوجه الله تعالى، فنال جزاء على ذلك أن وُلد من ذريته سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد المصطفى ﷺ. فالله تعالى يوصي ألا

تظنوا بأن تضحياتكم في سبيل الله تضيع. كلا، وإنما يجازيكم الله عليها جزاء يفوق تصوركم وتقديركم.

لقد اعترض البعض على قوله (فيضاعفه له أضعافا كثيرة)، وقالوا: الأصح أن يقال ضعافا بدلا من أضعافا. وقد رد بعضهم على ذلك وقال بأن (أضعافا) تشير إلى تعدد أنواع هذا الجزاء. لو استخدمت كلمة "ضعاف" لأفادت الكثرة فقط، ولكن أضعاف تعني الزيادة وتعدد أنواعها (التفسير المظهري).

ثم قال (والله يقبض ويبسط).. أي كما حلّت المصيبة بإخوانكم فيمكن أيضا أن تحلَّ بكم، فأيام العسر واليسر تتغير وتتبدل، فمن واجبكم الأول أن تقدموا يد المعونة إليهم.

وفي قوله (والله يقبض ويبسط) شرح للجملة السابقة. حيث بيّن ماذا يعني أخذ الله القرض من عباده. فذكر أن من سنة الله أنه يأخذ من عباده أموالهم، ثم يزيدها ويحقق لهم الازدهار. وما لم يُضحِّ العبد في سبيل الله تعالى لا يترل عليه الفضل الخاص من الله والمشار إليه في قوله (يبسط).

وما دام العسر واليسر بيد الله فكل من يطيع أوامره قدّر له البسط، والذي يعصي قدّر عليه القبض، أي يعذبه.

كذلك يعني قوله (والله يقبض ويبسط) أن الإنسان يطرأ عليه حالان: حال القبض وحال البسط. جاء صحابي إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله. أصبحتُ منافقا. فقال النبي: أنت مؤمن. فلماذا تقول ذلك؟ قال: يا رسول الله: عندما أكون في مجلسك يُخيَّل إلي أنني أرى النار والجنة أمامي، تستولي علي خشية الله. ولكن عندما أرجع إلى البيت لا أبقى في هذه الحال. فقال النبي: هذا هو الإيمان . لو بقي الإنسان على حال واحد لمات[١٥].

[١٥] ورد في ابن ماجة أبواب الزهد حديث قريب المعنى سبق الإشارة إليه.

فهناك حالتان روحيتان: القبض والبسط، ولو بقي الإنسان في حالة واحدة منها باستمرار فإن يموت عقليا ويُجَن. هذا هو الفارق بين المجانين والعقلاء. المجنون تستولي عليه حالة واحدة باستمرار، أما العاقل فيأتي عليه حال من القبض والبسط. إن المجنون يظل في أفكار واحدة، ولكن أفكار العاقل تتغير ولا تبقى في حيز واحد. لقد جعل الله للإنسان حالين لازمين هما القبض والبسط. أحيانا تتولد فيه موجة من البسط فيستعد للتضحية بكل ما يملك في سبيل الله والدين، وأحيانا يجلس ويُجري الحسابات ليرى كم ينفق وكم يُبقي. وهذه هي حالة القبض. أما إذا استعد للإنفاق من كل ما يملك وكان بذلك في فرحة غامرة فهذه حالة البسط. يوصي الله بالإنفاق في الحالتين: القبض والبسط؛ لأن العسر مؤقت واليسر أيضا مؤقت.

كان من الممكن أن يقال: إذا كان مالي عند الله يزداد، فما الفائدة بالنسبة لي. فأضاف (وإليه ترجعون).. أي إنما بيتكم الحقيقي هو عندنا، وكل ما تقدمونه إلينا نزيده، وعندما تأتون إلى الله تجدون هذا المال قد ازداد عنده زيادة كبيرة، وسوف تحصلون عليه. ويشبه هذا رجلا يعمل في الخارج، ويرسل مرتبه إلى زوجته، فتحفظه وتجمعه له. ولكن الله تعالى لا يجمع المال فقط، وإنما ينميه ويزيده. فبقوله (وإليه ترجعون) بيّن أنكم سوف ترجعون إلى الله في يوم من الأيام حيث تنتظركم حياة أبدية، فلا تضروا هذه الحياة الأبدية لمنافع مؤقتة، وساهموا في الخير ما استطعتم. انظروا إلى بلاغة القرآن الكريم كيف راعى الترتيب في ذكر الأنفس والأموال بطريقة رائعة. ففي وقت الحرب تكون الحاجة الأولى إلى النفس، فالمطلوب من الجنود أن يضحوا بأنفسهم من أجل الدين والقوم، ولذلك ذكر هذا الأمر أولا فطالب المؤمنين بالتضحية بنفوسهم في الآية السالفة: (قاتِلوا في سبيل الله). وتراعي الحكومة أن تكون خزائنها مليئة، لأن القوم عندما يخرجون إلى ساحة القتال تُلقى أعباء ثقيلة غير عادية على خزانة الدولة بسبب النفقات الحربية، ولا بد من سدّ هذا الفراغ، وإلا لا يستطيع المحاربون الاستمرار في القتال لمدة طويلة، ولذلك ذكر الله التضحيات المالية في المكان الثاني. وهكذا أعطى الله تضحيات

النفوس والأموال أهمية أساسية فيما يتعلق بالرقي القومي والديني، كما راعى الترتيب الطبيعي في هذا لبيان أن تضحيات النفوس لها المقام الأعلى ثم تضحيات المال.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٢٤٧)

شرح الكلمات:

الملأ–من ملأ الإناء ماء. ومُلىء رعبا أي امتلأ قبله رعبا. والملأ كبار القوم وسادتهم، لأن كبير القوم عندما يحضر في المجلس يقولون الآن امتلأ المجلس ولا حاجة لأحد. فمهما كان عدد الفقراء في المجلس إلا أنه ما لم يأت كبير القوم يقولون ليس للمجلس رونق، ولا يبدءون العمل حتى يحضر كبيرهم. لذلك يسمون كبار القوم "الملأ". كذلك تمتلئ قلوب الناس هيبة أو محبة لكبار القوم ولذلك أيضا يسمون ملأ. (الأقرب)

عسيتم –عسى للاحتمال والإمكانية وأحيانا للتوقع. وعندما تستخدم في حق الله فإنها تعني الاحتمال الكبير (المفردات).

التفسير: في الآيات السابقة ذكر الله حادثا لبني إسرائيل. ونصح المسلمين بأن لا يرفضوا قبول الموت لوجه الله أبدا. والآن يذكر حادثا آخر لرؤساء بني إسرائيل، إذ طلبوا من أحد أنبيائهم أن يعين لهم ملكا قائلين: طالما ظلمونا وأخرجونا من ديارنا وممتلكاتنا، وفرقوا بيننا وبين أبنائنا؛ فنحن بحاجة إلى ملك حتى نقاتل في سبيل الله.

وكلمة (من بعد موسى) لا يعني أن هذا الحادث وقع بعد موسى فورا، وإنما كان بعده يشوع الذي كان نبيا وملكا أيضا. بل إن الحادث المذكور قد وقع بعد موسى بمئات السنين كما سوف يتبين في السطور القادمة.

وقوله (هل عسيتم) هو من كلام هذا النبي يقول: إذا فُرض عليكم القتال فربما لا تقاتلون، فيجب أن تفحصوا نيّاتكم وقلوبكم جيدا حتى إذا فُرضت الحرب لا تأثموا برفض القتال.

وقوله (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) بمعنى أنهم استولوا على ممتلكاتنا وديارنا، وقتلوا أولادنا أو استولوا عليهم أيضا، وما دمنا قد تحمّلنا هذه الشدائد في سبيل الله إلى الآن فلماذا نُمنع من قتالهم. وهذا أيضا يؤكد أن هذا الحادث وقع بعد موسى بزمن بعيد. لأن بني إسرائيل في زمن موسى رفضوا القتال صراحة عندما قالوا (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون). أما هنا فلا يقولون هذا، بل يقولون نريد الحرب، وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا. صحيح أنهم عندما جاء وقت الحرب، كما تذكر الآيات القادمة، تزلزل كثير منهم ولم يثبتوا على عزيمتهم، ولكنهم في البداية أبدوا رغبة في القتال، وطلبوا أن يعيَّن عليهم ملك حتى يضعوا حدا لاضطهاد العدو.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٤٨)

التفسير: عندما طالب كبراء بني إسرائيل تعيين ملك لهم يحاربون العدو تحت قيادته.. كانوا يظنون أن واحدا منهم سوف يعين ملكا، ولكن الله أراد ابتلاءهم،

فعين شخصا غيرَهم خلافا لما أرادوا. وهنا تجلّى ضعف إيمانهم الذي كان مستورا من قبل، وأخذوا يعترضون: كيف يكون ملكا علينا؟

وبنوا اعتراضهم على أمرين: الأول-أنه لم يُؤت جاها ظاهريا. نحن من أسر كبيرة وهو من أسرة وضعية، ولذلك نحن أحق بالملك منه. والثاني –أنه أقل منا مالا. فهو فقير، والواجب أن يكون الملك ثريا، فلا نقبل تعيينه ملكا علينا. فرد عليهم نبيهم: (إن الله اصطفاه عليكم).. أي الجواب على حجتكم الأولى أن الله هو الذي اختاره، وفضيلة الإنسان تبدو باختيار الله له، فعندما يصطفي الله أحدا على الآخرين يجعله ناجحا رغم معارضتهم. كذلك اختار الله عليكم طالوت، وهذا دليل على فضيلته. والجواب على حجتكم الثانية هو (وزاده بسطة في العلم والجسم) فرغم عدم ثرائه إلا أنه أكثر منكم علما. وبالعلم أشار إلى أن المال يُكتسب في الدنيا بالعلم، أما الأحمق فإنه يبدد ويقضي على ما كسبه آباؤه. ولقد زوده الله بالعلم، وبه يستطيع كسب المال الكثير.

وذكر فضل علمه عليهم أيضا ليشير إلى أن الثراء لا يجعل الإنسان أهلا للحكم، وإنما يتطلب الحكم أن يكون في الإنسان قدرات لإدارة الأمور. وطالوت مزود بهذه المؤهلات أكثر منكم، ويعرف كيف يدير دفة الحكم، ومطّلِع على مجريات الأمور السياسية اطلاعا جيدا، فلا تعترضوا عليه لقلة ماله، ولسوف تظهر قدراته الكامنة في الوقت المناسب.

ثم ذكر بسطته في الجسم، ليقول: أنتم تريدون الحرب، وهو رجل ذو كفاءات جسدية عظيمة، ففيه الهمة والعزيمة والثبات والشجاعة والثقة بالنفس. فمنذا يكون أنسب منه للقيادة في الحرب؟

ولا يعني قوله هذا أنه ضخم الجسم، وإنما المراد منه أنه قوي وشجاع جلد وفيه روح التضحية. يقول العرب: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه (الأقرب).. أي قوة الإنسان تكمن في عضوين صغيرين هما القلب واللسان. وهذه أيضا علامة الخلفاء الصادقين. عندما صار سيدنا أبو بكر خليفة، أشار عليه سيدنا عمر في شأن مانعي الزكاة قائلا: إذا كان الناس لا يريدون أداء الزكاة فاتركهم وشأنهم، فمحاربتهم في

هذه الأيام سوف تضعف المسلمين (البخاري، الزكاة). ولكن عندما تولى سيدنا عمر نفسه الخلافة قام بأعمال عظيمة. فالحق أن الهمة والثبات والاستقامة علامة كبيرة يهبها للخلفاء الصادقين.

وقوله (والله يؤتي ملكه من يشاء) بيّن فيه نبيهم أنه لو افترضنا صحة ما تقولون فمع ذلك لا يحق لكم الاعتراض، لأن اتخاذ القرار دائما في يد المالك، وما دام الملك لله يعطيه من يشاء فلا مجال للاعتراض. من المبادئ المسلم بها في الدنيا أنه إذا حصل اختلاف على ملكية الشيء فيرجع الأمر إلى المالك الأصلي. وما دام الله قد اختاره لهذا المنصب، وما دام الحكم الحقيقي لله فلا يحق لكم الاعتراض على تعيينه ملكا.

ويبدو أيضا من قوله (والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم) أنهم كانوا يريدون إثارة اعتراض آخر حول ما هو العلم وما هي البسطة التي بدت منه، لذلك أجاب الله على هذه الأسئلة المتوقعة منهم، فقال (والله يؤتي ملكه من يشاء).. أي الاختلاف في الآراء يحدث دائما، ولكن الأمر يرجع إلى المالك، ويكون رأيه هو الفيصل والأفضل.. فلماذا يتبع الله آراءكم ما دام هو المالك. وإذا قلتم إن طالوت عديم المال فالله (واسع).. قادر أن يوسع عليه ويؤتيه مالا. وإذا قلتم إنه ليس أهلا للحكم فالله (عليم)..أعلم منكم بالواقع ويعلم أنه أحق بالملك منكم. فإذا أردتم الخصام في كل حال فارجعوا إلى الله.. هو صاحب الملك يعطيه من يشاء.

ويتبيّن من هذه الآية أن الأنبياء السابقين قبل الرسول ﷺ لم يأتوا بشرائع كاملة.. فكلما مست الحاجة إلى الوحي لإصلاح الخلق بعث الله نبيا، وخلع عليه النبوة مباشرة، وكلما حصل خلل في النظام والملك أقام الله ملكا. لم يكن الناس بعد قد حققوا رقيا عقليا بحيث يستطيعون بأنفسهم بذل الجهود لإصلاح أحوالهم، فكان الله يعين الملوك من عنده لإدارة النظام إلى جانب الأنبياء الذين كان يبعثهم مباشرة. وكما يظهر من هذه الآية أن الملوك لم يكونوا يُنتخبون، وإنما ينالون الحكم بالوراثة، أو أن نبيا من أنبياء الله تعالى كان يعيّن ملكا.

ولما كان نبينا محمد ﷺ قد جاء بأكمل الشرائع، وبُعث إلى قوم هم أفضل من الأمم السابقة، لذلك لم تبق هناك حاجة ليبعث الله بعده نبيا مستقلا. وكذلك ألغى الله تلك الصورة الأولية من تعيين الملوك وجَعَلها على صورة أفضل، واشترط لذلك أسلوب الانتخاب. وبذلك حافظ على الحقوق القومية، ولم تكن مصونة من قبل في حكم الملوك.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٤٩)

شرح الكلمات:

بقية –البقية تُطلَق على كل شيء أفضل وخير. يقال: فلان بقية قومه: أي من خيارهم (الأقرب). وقد وردت بهذا المعنى في قوله تعالى (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) (مريم:٧٧). ووردت بمعنى العقل في قوله (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض) (هود:١١٧). ولما كان العقل بمعنى الخير، ونافعا للإنسان وحافظا له أُطلقت البقية على العقل.

ترك–التركة يراد بها عموما الإرث، ولكنها أيضا تعني ما يرثه الإنسان من صفات طيبة من الآخرين. كما قال تعالى (يرثني ويرث من آل يعقوب) (مريم:٧). كان لا يستطيع أن يرث بني إسرائيل إرثا ظاهريا، فالمراد أن يرث حسناتهم ويتصف بصفاتهم الطيبة.

تحمِله–علاوة على معنى الحمل الظاهري فإن الكلمة تعني أيضا الإغراء: يقال حمله على كذا أي أغراه (اللسان).

التفسير: في الآية السابقة أجاب نبي ذلك الوقت على من اعترضوا على تعيين طالوت ملكا لهم: (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم).. أي أن

الله تعالى هو الأعلم بما في الإنسان من قدرات خفية، وما دام هو الذي اختار طالوت ملكا عليكم فلا بد أنه الأفضل بينكم. كما أن الحُكم لا يكون بقوة المال ولكن بالعلم وروح التضحية، وهو الأفضل بينكم في هذين الأمرين. فهو الأعلم والأكثر استعدادا لبذل قواه الجسمانية عند المواقف الصعبة الخطيرة.

وفي هذه الآية ذكر دليلا آخر قدّمه النبي لتبرير اختيار طالوت ملكا.. هو أن (يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل وموسى وآل هارون تحمله الملائكة).

قال المفسرون إن التابوت هنا هو ذلك الصندوق الذي كان يحتفظ فيه بنو إسرائيل بالنسخة الأصلية للتوراة وبعض الآثار المباركة من موسى وهارون. كانوا يأخذون معهم في السفر والحضر لأنهم يعتبرونه ذا بركة عظيمة (الجواهر في تفسير القرآن).

وقد جاء ذكر هذا التابوت في التوراة هكذا: (فيصنعون تابوتا من خشب السنط ١٠) والعجيب أن القرآن يقول إن الملائكة تحمل هذا التابوت، ولكن التوراة تذكر أن أعداء بني إسرائيل خطفوا هذا التابوت منهم، قيل: (وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب.. واشتبكت الحرب، فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضُربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل. فجاء الشعب إلى المحلّة. وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسَّرنا اليوم الربُّ أمام الفلسطينيين. لنأخذ لأنفسنا من شَيْلُوهَ تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا. فأرسل الشعب إلى شيلوه، وحملوا من هنا تابوت عهد رب الجنودِ الجالسِ على الكروبيم).

وتقول التوراة إن الفلسطينيين خافوا من تأثير هذا التابوت على إسرائيل وتشددوا.. فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جدا. وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل. وأُخذ تابوت الله (صموئيل الأول: ٤).

فإذا كان المراد من التابوت هنا هو هذا التابوت نفسه فما كان مدعاة لأي مسرة أو سكينة لهم، لأنهم بالرغم من وجود هذا الصندوق بينهم مُنوا بالفشل الذريع والهزيمة النكراء، مع أنهم كانوا مستبشرين بهذا التابوت لدرجة أن كاهنهم الأكبر

عندما علم بوقوع هذا التابوت في يد الأعداء سقط ميتا (المرجع السابق). ولكن التابوت الذي يذكره القرآن الكريم موجبٌ للسكينة ولا يمكن أن يكون التابوت المذكور في التوراة.

إذا رجعنا إلى القواميس نجد أن التابوت يُطلَق على الصندوق وكذلك على السفينة (اللسان). ولكنها مجازا تُطلق على القلب. ويؤيد ذلك قولهم عن القلب: بيت الحكمة، صندوق الحكمة وعاء الحكمة (المفردات).كذلك يؤيد ذلك قولهم: ما أودعتُ شيئا تابوتي فقدتُه.. أي أنني لست متلون المزاج وإنما أنا ذو مزاج ثابت مستقر.. ما وقع في قلبي بقي فيه. وكذلك قيل: التابوت: الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما تشبيها بالصندوق الذي يُحرَز فيه المتاع (التاج). فإيداع سرّ علمي أو روحاني في التابوت يعني أنه قد كُتب على جدران القلب وحُفظ فيه كما يُحفظ المتاع في الصندوق.

والتابوت: القلب (التاج). وقيل إنه عبارة عن القلب، والسكينة وعمّا فيه من العلم (المفردات).

كذلك فإن كلمات القرآن تدل صراحة على أن المراد من التابوت هنا هو القلب، لأنه يقول (فيه سكينة من ربكم) والظاهر أن السكينة لا تنزل في الصناديق وإنما تنزل في القلوب.

كذلك وُصف هذا التابوت بأنه تحمله الملائكة. ولو اعتبرنا التابوت صندوقا ظاهريا فهذا يتنافى مع تعاليم القرآن الكريم الذي يقول (وما منع الناس أن يؤمنوا إذا جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا. قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (الإسراء: ٩٥). فلو قلنا إنه تابوت ظاهري لأدى ذلك إلى الاعتقاد بأن الملائكة كانوا يحملونه ويمشون بين الناس، وهذا يتعارض مع تعاليم القرآن الكريم كما ذكرنا. فلا بد أن يكون التابوت هنا بمعنى القلب. وحمل الملائكة للقلب يعني تشجيع صاحبه. يقال حمله على كذا أي أغراه (الأقرب). فقوله (يأتيكم التابوت فيه سكينة) يعني أن الملائكة سوف يشجعون ويحضون أتباع طالوت على بذل التضحيات، وسوف يؤيدون

كل فرد منهم وينصرونه، ويتفق المؤرخون على أن عدد جيش طالوت كان قليلا جدا، وكان من المحال أن يتغلبوا على أعداد غفيرة من العدو إلا بنصرة من الله تعالى وتأييد من الملائكة (تفسير الطبري).

ويتبين من هذه الآية ضمنيا أن من أساليب اكتساب البركات الإلهية عن طريق الملائكة أن يُنشئ الإنسان علاقة إخلاص ووفاء وطاعة صادقة مع الخلفاء الذين يقيمهم الله تعالى. فقد ذُكر هنا أن الدليل على أن يد القدرة الإلهية هي التي اصطفَت طالوت ملكا.. هو أنكم تنالون قلوبا جديدة من الله تعالى.. تنزل فيها السكينة وتؤيدها الملائكة . أي أن إنشاء العلاقة بطالوت يُحدث انقلابا عظيما في نفوسكم. فتزدادون همة وإيمانا ويقينا، وتقف الملائكة إلى جانبكم تؤيدكم وتنفخ في قلوبكم روح التضحية والاستقامة، فإنشاء علاقة حب وإخلاص ووفاء مع الخلفاء الصادقين يوطد العلاقة مع الملائكة، ويجعل الإنسان مهبطا للأنوار الإلهية.

وقوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون).. البقية في اللغة هي أفضل شيء وخيره، فالمراد: الأخلاق الفاضلة التي ظهرت من موسى وهارون وأتباعهما المقربين. أي أن قلوبكم سوف تتحلّى بالمحاسن التي تركها آل موسى وآل هارون إرثا لكم. وهذا يشبه دعاء سيدنا زكريا (..فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب..)(مريم: ٦و٧).. أي هب لي ابنا يرث المحاسن والأخلاق الكريمة التي تركها آل يعقوب، وليس أن يرث ما تركه هؤلاء من أموال وممتلكات.. ذلك لأنه عندما دعا زكريا هذا الدعاء كان قد مضى على يعقوب أكثر من مائة جيل.

وقوله تعالى (آل موسى وآل هارون) لا يعني أن لهما أمتين منفصلتين. فهذا خطأ بالبداهة، فكيف يكون هناك أمتان في قوم واحد وفي وقت واحد وفي شرع واحد؛ وإنما يعني "آل" أهليهما وأقاربهما، والمراد أن هؤلاء أيضا يكونون متصفين بصفات حميدة كانت في أولاد هذين النبيين.

وإذا قيل: ليس من الضروري أن يكون الأهل متصفين بصفات أسلافهم.. فالجواب أن الله تعالى استخدم كلمة (بقية) أي محاسنهم وخيرُ ما فيهم، فلا بد أن يكون أهلهما أصحاب محاسن. ثم إن التوراة أيضا تذكر أن الله أمر موسى أن يخلع على

هارون لباسا مقدسا وأن يتم تكريمه، ويفرض أيضا على بني إسرائيل تكريم بني هارون، وأن يُعهد إلى هؤلاء نظام المعابد والكهنوت. قيل: (وتقدِّم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع، وتغسلهم بماء. وتُلبس هارون الثياب المقدسة، وتمسحه وتقدِّسه ليَكْهَن لي: وتقدِّم بنيه وتلبسهم أقمصة، وتمسحهم كما مسحت أباهم، ليكهنوا لي. ويكون ذلك لتصير لهم مسحتُهم كهنوتا أبديا في أجيالهم) (خروج ٤٠:١٢). فصحيح أن أهل الإنسان لا يكونون بالضرورة متحلّين بصفاته الحسنة، ولكن فيما يتعلق بأهل موسى وهارون فإن الله أودعهم أخلاقا حميدة. وقد جعل الله علامة انتخاب طالوت ملكا لهم من لدن الله.. أنه سوف يخلق في أصحابه نفس التقوى والروحانية والأخلاق السامية التي كان آل موسى وهارون يتحلون بها.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢٥٠)

شرح الكلمات:

اغترف–لعبارة (اغترف غرفة) معانٍ متعددة، ولذلك أضيفت كلمة (بيده) لتحديد المعنى وهو: شَرِب قليلا من الماء باستعمال يده (الأقرب).

كم–تفيد معنى الكثرة. قال البعض إنها لا تدل على الكثرة بالضرورة (تفسير الرازي).

فئة–الفئة: الجماعة وهي مِن فاء أي رجع ومال (الأقرب). ولما كانت الجماعة تعتمد على أفرادها، وأفرادها يعتمدون عليها عند حلول شدة لذلك يسمون فئة.

التفسير: عندما خرج طالوت بجنوده لمبارزة جالوت، امتحنهم الله بنهر، لكي يفصل عنهم ضعاف الإيمان، ولا يتصدى للعدو إلا كاملو الإيمان منهم والذين تؤيدهم الملائكة. والنهر بمعنى جدول ماء، وأيضا السعة والرخاء. (المفردات). وهنا يمكن أن يكون قد ورد بالمعنيين. فالمعنى أن الله أخبر هؤلاء الجنود عن طريق ملكهم أنكم سوف تُمتحنون بالمال والرخاء؛ وإذا اندفعتم وراء المتع الدنيوية والمال فلن تستطيعوا تقديم أي خدمة في سبيل الله تعالى، وأما إذا لم تتأثروا بالمال فسوف تحققون النجاح. وفي هذا المعنى يكون قوله (فمن شرب منه) على سبيل المجاز.

ولكن بما أن طالوت وأصحابه قد اختُبروا فعلا بجدول ماء فلا حرج أن تؤخذ الكلمة بمعناها الظاهري. تتطلب الحرب والقتال من الإنسان أن يكون سريع الحركة، أما إذا ملأ بطنه بالماء فلا يتمكن من الحركة السريعة، ولذلك أمرهم الله أن يبقوا خفيفي البطن ولا يشربوا من الماء إلا قليلا ليحاربوا بهمة ونشاط. ولكن معظمهم لم يدركوا حكمة الأمر الإلهي وشربوا ملء بطونهم، وكان هناك قلة منهم –تقول التوراة إنهم ثلاثمائة (قضاة ٧)– لم يشربوا إلا اغترافا بأيديهم حتى يظلوا على نشاطهم وخفة حركتهم، وجزاء على تضحيتهم هذه وتقديرا لإخلاصهم أمر الله أن يتم الفتح على يد هؤلاء وحدهم، ولا يشترك في الحرب سواهم. وبالفعل سار طالوت بهؤلاء دون غيرهم إلى الحرب، وتم الفتح بإذن الله على أيديهم.

وقوله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) يعني أن الكثير من الجماعات الصغيرة تغلبت على جماعات كبيرة بفضل الله تعالى. ذلك أنهم يتمتعون بروح التضحية والإيثار، ويعتادون على استغلال أوقاتهم في أمور مفيدة بدلا من إضاعتها في اللغو. ثم إنهم أمناء صادقون، مجتهدون، ذوو همم عالية، وعزائم قوية. أما خصومهم أهل الكثرة العددية فإنهم يكونون عراة من هذه الصفات الحميدة. والنتيجة أن هذه الجماعة القليلة تغلب الجماعة الكبيرة. الحقيقة أن شخصا واحدا يتمتع بروح الإيثار والإخلاص يتغلب على عشرات. خذوا مثلا المجنون، يخاف الناس من التصدي له مع أنه وحيد. ذلك أنهم يخافون من الإصابة بضربة أو جرح، فيستخدمون قوتهم

إلى حد محدود، ولكن المجنون لا يبالي بالضرب والجرح ولا بالموت، ولذلك يستخدم كل قواه فيتغلب على الكثيرين مع أنه وحيد. كذلك كل جماعة يتمتع أفرادها بروح التضحية والإيثار وينهمكون في خدمة الدين كالمجانين، ويبلغون في بذل الجهود والتضحيات حدا يخاف الآخرون من بلوغه.. فالواحد منهم يساوي عشرة بل عشرين من الآخرين. ففي وقعتي بدر والخندق تغلبت جماعة صغيرة من المسلمين على جماعة أكبر منها عدة أضعاف.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٥١)فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٢٥٢)

شرح الكلمات:

برز-خرج (الأقرب).

أفرغ-فرغ الماءَ: صبَّه(الأقرب). أفْرِغ علينا صبرا: أعطنا نصيبا وافرا من الصبر.. أي اجعلنا صابرين كاملين فلا يظهر منا ما يدل على الجزع والفزع.

انصرنا-نصر المظلوم: أعانه: نصر فلانا على عدوه. نجاه منه وخلصه وأعانه وقوّاه عليه (الأقرب).

التفسير: يقول إن طالوت وأصحابه هزموا جالوت ومن معه بإذن الله تعالى. والإذن هو السماح والعلم، ولكنه هنا بمعنى المشيئة والإرادة (المفردات).

هناك اختلاف في زمن هذه الواقعة بين المفسرين، حتى اعترض المسيحيون أيضا وقالوا إن القرآن الكريم خلط هنا بين أحداث وقعت في زمنين منفصلين. أما قدامى المفسرين فيقولون إن هذا الملك هو "شاول" (تفسير الطبري).. عيَّنه النبي صموئيل، وكان جالوت من أعدائه.

وتذكُر التوراة قامة وجسامة شاول ذكرا خاصا فقد ورد عنه: وكان له ابن اسمه شاول شاب وحسن، و لم يكن رجل في بني إسرائيل أحسن منه. من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب) (صموئيل الأول: ٢:٩). وكذلك ورد في التوراة أن شاول كان من قبيلة أدنى (المرجع نفسه: ٢١). ولكن الثابت منها أيضا أن الله سخط على شاول، وانتزع منه ملك بني إسرائيل (المرجع نفسه:٢٦:١٥). وأن شاول مُني بهزيمة نكراء على يد الفلسطينيين، وقتلوا ثلاثة من أولاده، وانتحر هو أخيرا(المرجع نفسه: ٣١:١-٥). ولكن القرآن الكريم يذكر أن الملائكة تنصر هذا الملك وينال الفتح تلو الفتح. فإذا قلنا إن طالوت الملك هو شاول فلا تنطبق عليه العلامات القرآنية.

وعندما تدبرت في هذه الآيات أُعجبت بالمعنى الذي يعترض عليه الأعداء بسبب جهلهم، حيث يقولون إن القرآن خلط حدثين وقعا في زمنين مختلفين تماما. أما المفسرون فقد حاولوا إثبات أن زمن طالوت وجالوت وداود واحد، ويطبقون هذا الحادث على شاول، لأنه كان طويل القامة، وكان من أعدائه شخص يسمى جُليات (صموئيل الأول ١٧:٤).

ولكنني أرى أنه قبل تعيين أي شخص يجب علينا أن نلقي نظرة شاملة على كل العلامات التي ذكرها القرآن عن هذا الحادث.

أولا: بيّن قولهم (أخرجنا من ديارنا وأبنائنا).. أن بني إسرائيل أُخرجوا من ديارهم.

ثانيا: أنه عُيِّن عليهم ملك لم يكن من أسرة كبيرة ولا من نسل الملوك.

ثالثا: كان الله تعالى ينصره وأصحابه، وكان عندهم تابوت.

رابعا: اختبر هؤلاء بنهر.

خامسا:كان عددهم قليلا جدا إزاء أعدائهم. وقلُّوا أكثر بعد الاختبار.

سادسا: تغلب هذا الملك على أعدائه رغم كل ذلك.

نعم، تنطبق بعض هذه العلامات على شاول، فقد صار ملكا بتعيين من نبي، وحقق انتصارات على الأعداء وكان من عدائه شخص اسمه جالوت، ولكن أرى أن هناك

أمورا أكثر أهمية من هذه، وتفرض علينا البحث عن شخص آخر بدلا من شاول وهذه الأمور هي:

١. قوله (من بعد موسى)، وهذه العبارة تدفعني إلى الاعتقاد بأن هذا الحادث وقع في زمن يبدأ منه تاريخ بني إسرائيل، إذا ذُكر داود تبين أنهم يهود، وهذا شيء بديهي، فما الحاجة إلى أن يقول من بعد موسى. الحق أن هذه الكلمات تشير إلى تاريخ قومي لبني إسرائيل.

٢. يقول القرآن (تحمله الملائكة) مما يوجب أن يحقق هذا الانتصارَ دائما، ولكن شاول مني بالهزائم، وكان مصيره مؤلما باعثا على الحسرة (المرجع السابق ٢٨).

٣. يقول القرآن (إن الله مبتليكم بنهر) أي أن هؤلاء قد اختبروا بنهر، ولكن لا نجد أي ذكر في التوراة في زمن شاول عن ابتلائهم بنهر. فعند البحث عن هذا الشخص لا بد من النظر إلى حادث النهر أيضا.

ومن الغريب أننا نجد في التوراة حادثة عن نهر، وأن قوما اختُبروا به وطُلب منهم صراحة ألا يشربوا منه، ولكن معظمهم شربوا منه فتأخروا. أما الذين لم يشربوا فهاجموا العدو وتغلبوا عليه (قضاة ٧). فكأن هذا الحادث الوارد في موضع آخر من التوراة ومن غير زمن شاول يؤكد البيان القرآني.

لقد اعترض المسيحيون على هذا البيان القرآني وقالوا أن هذا الحادث من زمن جدعون وخلط القرآن بين الحادثين، وقوله (وقتل داود جالوت) خطأ، لأن داود جاء بعد جالوت أو جدعون بمائتي سنة فكيف يقتله؟

وأرى أن القرآن يشير هنا إلى حادث جدعون، والتوراة لم تذكر أن الله عيَّنه ولكن القرآن يذكر ذلك، وهذا هو كل الفرق. وما ورد في التوراة هو أن الله بعث نبيا إلى بني إسرائيل، وقال لهم نبيهم هذا: قال الله لكم لا تخافوا من آلهة الأموريين الذين تقيمون في بلدهم، ولكنكم لم تعملوا بوصيتي (قضاة٦: ١٠)، ثم تذكر التوراة أن جدعون رأى ملكا قال له: قم نجِّ بني إسرائيل من أيدي المديانيين

(قضاة٦: ١٤). أما العلامات الأخرى المذكورة في القرآن فهي كلها مذكورة في هذا الحادث الوارد في التوراة أيضا.

إن زمن وفاة موسى ١٤٥١هو ق. م. أما جدعون فكان حادثته بعد وفاة موسى عام ١٢٦٦ ق.م. إذن هناك فاصل زمني بعد موسى وبين جدعون يبلغ مائتي سنة تقريبا.

وورد في الموسوعة الكتابية Encyc biblica أن بني إسرائيل بعد مجيئهم من مصر إلى كنعان لم يصبحوا أمة واحدة، وإنما كانوا يعيشون في أراض مختلفة في صورة قبائل منفصلة لا يجمعهم ملك؛ بل لم يكن لهم ملوك لمدة مائتي سنة. فلا جنود ولا ملك (تحت كلمة إسرائيل).

وورد في التوراة أنه عام ١٢٥٦ ق.م. ارتكب بنو إسرائيل إثما أمام الله، فجعلهم الله تحت المديانيين لسبع سنين، وكانت يدهم فوق إسرائيل، والتجأ بنو إسرائيل إلى الكهوف واتخذوا منها بيوتا لهم (قضاة٦: ١-٢).

وهذا قريب من قوله تعالى (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا). (وإذا زرع إسرائيل يترلون عليهم ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا. فذلَّ إسرائيل جدا من قِبَل المديانيين. وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب.. إن الرب أرسل رجلا نبيا إلى بني إسرائيل فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل: إني قد أصعدتكم من مصر، وأخرجتكم من بيت العبودية، وأنقذتكم من يد المصريين ومن يد جميع مُضايقيكم، وطردتُهم من أمامكم، وأعطيتكم أرضهم، وقلت لكم إن الرب إلهكم، ولا تخافوا آلهة الأموريين الذين أنتم ساكنون أرضهم، و لم تسمعوا لصوتي) (قضاة٦: ٤-١٠)

هنا ذُكر نبي ولكن لم يرد أنه عيَّن ملكا، وكل ما جاء فيه أن ملاكا ظهر لجدعون هكذا: (وأتى ملاك الرب وجلس تحت البُطمة التي في عَفْرة التي ليوآش الأبيعَزَرِي. وابنه جِدْعون كان يخبط حنطة في المعصرة لكي يهرِّبها من المديانيين. فظهر له ملاك الرب قال له: الرب معك يا جبار البأس. فقال له جدعون: أسألك يا سيدي، إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه، وأين كل عجائبه التي أخبرنا بها آباؤنا قائلين: ألم يُصعدنا الرب من مصر؟ والآن قد رفضنا الرب وجعلنا في كفِّ مديان.

فالتفت إليه الرب، وقال: اذهب بقوتك هذه وخلِّص إسرائيل من كفّ مديان. أما أرسلتك؟ فقال له: أسألك يا سيدي، بماذا أخلص إسرائيل؟ ها عشيرتي هي الذُّلّى في مَنَسّى وأنا الأصغر في بيت أبي. فقال له الرب: إني أكون معك، وستضرب المديانيين كرجل واحد) (قضاة٦: ١١-١٦). يذكر القرآن كلمة "جنود". وتذكر التوراة أيضا أن المديانيين والعمالقة وبني المشرق كانوا موجودين هنا.

ثم جاء في التوراة (وقال الرب لجدعون: لم يزل الشعب كثيرا. أنْزِل بهم إلى الماء فأنقّيهم لك هناك. ويكون أن الذي أقول لك عنه هذا يذهب معك فهو يذهب معك، وكل من أقول لك عنه هذا لا يذهب معك فهو لا يذهب. فنـــزل بالشعب إلى الماء. وقال الرب لجدعون: كل من يَلَغُ بلسانه من الماء كما يلغ الكلب فأوْقِفْه وحده، وكذا كل من جثا على ركبتيه للشرب، وكان عدد الذين ولغوا بيدهم إلى فمهم ثلاثمائة رجل، وأما باقي الشعب فجثوا على ركبهم لشرب الماء، فقال الرب لجدعون: بالثلاثمائة رجل الذين ولغوا أخلّصكم وأدفع المديانيين ليدك. وأما سائر الشعب فليذهبوا كل واحد إلى مكانه. فأخذ الشعب زادا بيدهم مع أبواقهم. وأرسل سائرَ رجال إسرائيل كل واحد إلى خيمته وأمسك الثلاثمائة الرجل وكانت محلة المديانيين تحته في الوادي). (نفس المرجع٧: ٤-٨)

ثم هناك ذِكر لنجاة بني إسرائيل من المديانيين حيث أخذ جدعون معه ثلاثمائة من الرجال وحارب بهم وانتصر على المديانيين (فقرة ٢٥). هذا الحادث يشبه ما رواه القرآن حرفا حرفا. ويؤيد ذلك ما ورد البخاري أيضا عن البراء بن عازب يقول: (كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَاب بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَاب طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ (البخاري، المغازي، باب عدة أصحاب بدر).

وهنا ينشأ سؤال: القرآن يذكر اسم هذا الملك طالوت ولكن التوراة تسميه جدعون، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

ولأتحدث أولا عن جدعون. العجيب أن معنى جدعون في العبرانية هو كمعنى طالوت في اللغة العربية. فكلمة جدع تعني في العبرانية أن يقطع الإنسان شيئا ويسقطه على الأرض، أو يقشره أو يقطعه بالفأس. فجدعون هو من يقطع عدوه ويصرعه. وقد ورد في التوراة عن جدعون أنه كان بطلا كبيرا ومحاربا شجاعا (قضاة٦: ١١).

أما طالوت فهو اسم وصفي لجدعون من طال: أي تفوَّق. فطالوت هو الذي تفوق على الآخرين وصار صاحب مجد ورفعة فوق الآخرين كأن هذا الاسم يشير إلى أن هذا الشخص كان قبل ذلك من أدنى الرجال، ولكنه طال وتفوق على الآخرين فيما بعد بإذن الله.

وقد ذكرت مثل هذه الأسماء الوصفية في أماكن أخرى من القرآن الكريم، فقد قال الله عن رسوله محمد ﷺ (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدا) (الجن: ٢٠).. يقول إنه عندما يقوم عبد الله هذا محمد-ليدعوا إلى ربه فإن أهل مكة يجتمعون لمهاجمته. فاسم عبد الله اسم وصفي للرسول ﷺ واسمه الحقيقي هو محمد. وبالمثل كان طالوت اسما وصفيا لجدعون. فجدعون وطالوت في معنى واحد تقريبا.

أما جالوت فلنعلم أيضا أنه اسم وصفي وليس اسما *شخصيا، وهو اسم جماعة كانت تعيث في الأرض فسادا. وهذا الاسم في اللغة الإنجليزية هو جوليت ومعناه الأرواح المخربة، أو التي تدمر وتجري هنا وهناك بالفساد. وتعريب جالوت، جائل.. وهم قوم يقومون بالقتل والاغتيال والتدمير. والثابت من التوراة أن عصابة كان تعادي جدعون ويعيثون في الأرض فسادا. وأنهم عند غاراتهم يدمرون كل شيء (قضاة ٤). فلا يُراد بجالوت شخص معين، وإنما هو وصف لجماعة ضيَّقت الحياة على بني إسرائيل. تقول التوراة إن جدعون هزمهم، واستمر حكمه بعد ذلك لسبعين سنة.. أربعين منها حكمها بنفسه وثلاثين [١٦]بابنه. وازدادت في إسرائيل روح الوحدة القومية بسبب حكمه (قضاة٨).

[١٦]بحسب ما جاء في (القضاة٩: ٢٢) لم يكن حكم ابنه ٣٠ سنة بل ٣ سنوات.. (المترجم)

قوله (وقتل داود جالوت) هنا في تسلسل حادث جدعون ذكر حادثا آخر منفصلا يتعلق بداود عليه السلام. لوجود تشابه كبير بين ما حدث من جدعون وما حدث من داود. صحيح أن الفلسطينيين حاولوا طرد الإسرائيليين من فلسطين، فحاربهم جدعون وهزمهم (قضاة ٦-٨). ولكن هذه كانت بداية الحروب التي انتهت في زمن داود الذي قضى على العدو كلية. وبسبب هذه المشابهة ذكر حادث داود هنا، وإلا فإن حادث جالوت[جدعون] على حدة ومنفصل عن حادث داود، وبينهما فاصل زمني يبلغ مائتي سنة.

بقيت بعد ذلك مسألة ينبغي حلها وهي أن التوراة تذكر أن داود هو الذي قتل جالوت (صموئيل الأول ١٧). ولكن القرآن يذكر جالوت أيضا مع جدعون [طالوت]فقال: (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرِغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين).

فلنتذكر هنا —كما سبق القول- أن جالوت اسم وصفي، والمراد منه عصابة تفسد في الأرض، وكان أعداء جدعون عصابة يفسدون في الأرض، وكذلك كان الأعداءُ الذين حاربهم داود وأقر الأمن بإلحاق الهزيمة بهم عصابةً مفسدة. لذلك سُميت العصابتان باسم وصفي واحد هو جالوت. وقد ذُكر الحادثان هنا معا لأن جدعون هو أول من ألحق بهم الهزيمة، أمّا داود فقد دمرهم وأبادهم تماما، فقال القرآن الكريم (وقتل داود جالوت).. أي قضى عليهم داود. وأما عن طالوت فقد قال فقط (فهزموهم بإذن الله). والثابت من التاريخ أن جدعون ألحق الهزيمة بالأعداء في ١٢٥٦ ق.م. واستمر حكمه وحكم ابنه ١١٦١ ق.م. وفي ١٠٥٠ ق.م. استولى بنو إسرائيل على كنعان بيد داود عليه السلام. فالحكمة في ذكر جدعون وداود معا، وفي ربط الحادثين.. هي أن جدعون هو الملك الأول الذي حارب أعداء بني إسرائيل وخلق فيهم روح الوحدة القومية، وداود هو الملك

الأخير الذي قضى على الأعداء كلية. كان جدعون نقطة البداية وداود النقطة الأخيرة في هذه الحروب.

ثم قال (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين).. ذلك لأن حروب جدعون وداود كانت حروبا دينية، فقد كان أعداؤهما يهدمون معابدهم ويبنون لهم معابد مكانها (قضاة ٦ صموئيل الثاني: ١١). ولما كان من المحتم أن يواجه المسلمون حروبا دينية، لذلك ذكر الله أمامهم أحداث جدعون وداود لينبههم كي يهبوا ويحاربوا الأشرار، وينشروا في الدنيا الخير والتقوى، فقد ظهر الفساد في البر والبحر. وقال: تذكروا أن الله تعالى نصر جدعون وداود، ولسوف يُظهر لكم نصرته المعجزة.. لأنه لولا ذلك لفسدت الأرض وما استتب الأمن في العالم أبدا.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ(٢٥٣)

التفسير: يقول الله هنا إننا لم نذكر أحداث طالوت وجالوت على أنها قصص وأساطير، وإنما هي أنباء تؤكد أن المصطفى ﷺ سوف يتعرض لمثلها، وسوف ينال تأييدا ونصرة من الله تعالى كما نالها الأنبياء من قبله. وهكذا يتجلى للدنيا أنه ﷺ من أنبياء الله الأخيار الصادقين عليهم السلام.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(٢٥٤)

التفسير: يقول الله تعالى إن هؤلاء الرسل الذين سبق ذكرهم، كان بعضهم أفضل من البعض الآخر مقاما ومكانة. وقال هذا لأنه بذكر الأنبياء السابقين نشأ سؤال طبعي: هؤلاء الأنبياء السابقون قد بُعثوا إلى أممهم، وعارضتهم أممهم فقط، و لم تكن

مواجهتهم معارضة عالمية، ولكن محمدا ﷺ يُعلن أنه مرسل إلى العالم كله بشيرا ونذيرا (الفرقان: ٢).. فكيف يمكن التغلب على العالم كله؟ فرد الله أن للكمال آلاف الدرجات، هناك مدارج مختلفة تمتع بها الأنبياء بحسب درجاتهم، وكون الرسول نبيا منهم لا يعني أنه لا يفضلهم، فداود كان نبيا وملكا أيضا وبذلك كان له فضل على بعض الأنبياء؛ وكذلك فُضِّل محمد. كان داود أفضل من بعض الأنبياء ولكن محمدا أفضل الأنبياء جميعا. ولقد صرح النبي ﷺ أنه (لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي) (اليواقيت والجواهر للشعراني، وابن كثير).

قال البعض عن قوله (منهم من كلم الله) أن معناه أن الله تعالى كلمهم مشافهة بدون واسطة جبريل. وأرى أن المراد منه الأنبياء الذين جاءوا بشرع جديد. أما مَن ذُكروا في (رفع بعضهم درجات) فهم الذين لم يأتوا بشرع جديد. ذلك لأن كلام الله يتم مع كل رسول.. وإلا لا يمكن أن يكون نبيا. ثم إن كل نبي هو على درجة عالية عند الله.. لكن تكون المقارنة بينهم على ضوء الشرع، فبعضهم أصحاب شرع جديد، وبعضهم نال النبوة بدون شرع جديد.. مثل عيسى بن مريم، فإنه لم يُعطَ شرعا جديدا. وإنما أعطي النبوة فقط.

ويؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى عن موسى (وكلم الله موسى تكليما) (النساء: ١٦٥). ويؤكد أيضا حديث للنبي ﷺ عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال (أول نبي كان آدم فقلت: ونبيٌ كان؟ فقال: نعم. نبي مكلَّم (مسند أحمد). فثبت من ذلك أن من الأنبياء من ليس مُكَلَّما. ولما كان جميع الأنبياء يتشرفون بكلام الله.. كان المراد من الكلام هنا كلام الشرع الجديد.

ومعنى قوله (ورفع بعضهم درجات) أنهم وإن لم يكن لهم شرع جديد ولكنهم نالوا درجة النبوة الرفيعة. كما قال الله في موضع آخر: (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفَّينا من بعده بالرسل) (البقرة: ٨٨).. أي آتينا موسى شرعا، ثم بعثنا بعده أنبياء كثيرين على التوالي لنشر تعليمه وشرعه. كل هؤلاء الأنبياء لم يكن لهم شرع جديد، وإنما كانوا تابعين لشرع موسى عليهم السلام.

قوله (وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) لنتذكر أن الخطاب هنا لليهود، ولذلك ذكر المسيح ببعض صفاته لإقامة الحجة على اليهود. ولم يكن القصد من ذلك بيان ميزة خاصة للمسيح لا توجد في الآخرين كما يظن المسيحيون. وبقوله (وأيدناه بروح القدس) يشير أيضا إلى أن المسيح لم يأت بشرع جديد، وإنما قدَّم بعض ما جاءت به التوراة بصورة بارزة، وكان الله تعالى يؤيده. ذلك لأن شرع بني إسرائيل كان قد اكتمل وقتئذ، ولكنهم بالتدريج أهملوا مغزى الأحكام واكتفوا بالقشور. فجاء عيسى –عليه السلام –لدعوتهم إلى العمل بالتوراة كما قال المسيح نفسه "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمِّل" (متى ٥:١٧).. أي أنه لم يُبعث لنسخ شريعة التوراة وكُتُب الأنبياء وإنما بُعث لإكمالها. وفي الجانب الآخر كان لا بد أيضا من إصلاح الذين تمسكوا بالقشور دون مغزاها، وأن يبين لهم صراحة أن الهدف من ظاهر الشرع هو إصلاح الحياة الدنيا والاستعانة به على إقامة الشرع الباطن.. لأن الأصل الحقيقي هو الطهارة الباطنة والقداسة الروحية. وهذه المهمة أناط الله بها عيسى. فهو من ناحية قدّم للناس التعاليم الموسوية بالصورة الأصلية، ومن ناحية أخرى بيّن للمتمسكين بالقشور أن لهذا الظاهر باطنا أيضا، ولو لم تراعوا الباطن والمغزى فسوف يصبح الظاهر لعنة (متى٦: ٤-١٨). فالصلاة على سبيل المثال خير، ولكن إذا اكتفيتم بأداء الصلاة الظاهرة، ولم تقيموا الصلاة الباطنة.. فسوف تصبح هذه الصلاة لعنة لكم. والصوم عمل طيب، ولكنكم إذا اكتفيتم بالجوع ولم تصوموا صوما باطنا.. فسوف يصبح صومكم لعنة. وقد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة بكلمات أخرى فقال (ويل للمصلين) (الماعون: ٥).. أي أن هناك من المصلين من تكون صلاتهم لعنة لهم. وقد وضَّح الرسول للمسلمين هذه الأمور تماما ولذلك لم ينخدعوا. إن قيام الرسول ﷺ بتوضيح هذه الأمور مذكور في نبأ للمسيح ابن مريم فقال: "وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به) (يوحنا ١٦:١٣). ومع أن الرسول ﷺ قد قال نفس ما قاله المسيح عليه السلام.. إلا أنه وضحه للمسلمين أيما إيضاح،

ولذلك لم ينخدعوا ولم يعتبروا الشرع لعنة إلا إذا كان العمل غير مصحوب بطهارة القلب والإخلاص والتقوى. أما المسيحيون فقد انخدعوا بكلام المسيح عندما ضعفت فيهم الروحانية، وأساءوا التأويل واعتبروا الشرع لعنة، غاضين الطرف عن أن الشرع لو كان لعنة فلماذا صام المسيح وحواريوه، ولماذا عبدوا الله تعالى. هذا يؤكد أنهم لم يعتبروا ظاهر الشرع لعنة، وإنما كانوا يرون أنه إذا لم يصحب العملَ الظاهري إصلاحُ الباطن يصبح لعنة.

فبقوله (وأيدناه بروح القدس) يعني أننا أخبرنا عيسى بأسرار خاصة لطهارة القلب، وأمرناه بالتركيز على الطهارة الباطنية، وعلَّمناه حِكَما خفية لأحكام ظاهرة. وكأنه في زمنه بدأ التصوف يدخل في مرحلة البلوغ.

وقوله (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا).. يعني أنه بعد رؤية كل هذه الأحداث التي وقعت للأنبياء كان على هؤلاء الناس أن يرجعوا إلى الصواب ولا يميلوا إلى المعارضة في المستقبل، ولكن عندما بعث هذا النبي أيضا اختلفوا معه، فبعضهم آمنوا به وبعضهم رفضوه.

ثم قال (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد). لو أراد الله أن يهدي الناس بالإكراه لهداهم ولم يختلف أحد، ولكن لما كان الهدف من خلق الإنسان أن تتاح له فرصة لعمل الخير أو الشر بكل حرية، وما دام قد قرر أن يمنح الإنسان القدرة على فعل الخير أو الشر، ثم يحاسبه بحسب ما يختار، لذلك فإنه يعمل بحسب قراره هذا، ولا يبالي باعتراض الناس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالكافِرونَ هُمُ الظالِمونَ (٢٥٥)

شرح الكلمات:

خُلَّة–الخلة: الصداقة. تخلَّت القلب: دخلت خلاله. الخليل مَن خُلته مقصورة على حب الله تعالى فليس فيها لغيره متسع ولا شركة من مَحَابّ الدنيا والآخرة (مجمع

البحار). ورد في الحديث قول النبي ﷺ: (أبرأ إلى كل خليل من خلته. ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا) (الترمذي، المناقب).

شفاعة –يقال شفع العدد وشفع الصلاة صيَّرها شفْعًا أي زوجًا (الأقرب).

التفسير: يتبَيَّن من هذه الآية أن الإسلام لم يكتف بفتح صندوق من أموال الزكاة والغنائم لمساعدة الفقراء والمساكين، وإنما أوصى المسلمين مرة بعد أخرى بالصدقة وفعل الخيرات لصالح الفقراء والمساكين، وقال: لا تظنوا بسبب وعودنا بالرقي والازدهار أنكم لا تحتاجون الآن لمزيد من التضحيات، بل لا بد لكم من بذلها عند كل خطوة، وعند كل مرحلة.

(لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة): البيع الذي يُشير إليه مذكور في موضع آخر في قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (التوبة: ١١١). عقد الله معكم هذه الصفقة، ولكن هذا البيع يمكن أن يتم في الدنيا فقط وليس في الآخرة.

(ولا خُلَّة) أي لن يكون هناك خليل دون الله يوم القيامة، والسؤال هنا أن القرآن قال في مكان آخر (الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (الزخرف: ٦٨). فما دام المتقون يكونون أخلاء لبعضهم البعض فما المراد من قوله (ولا خلة) في ذلك اليوم؟

الجواب أنه ما دام المتقون يعتبرون الله خليلا لهم لذلك فإن خلة بعضهم لبعض لا تُتصور منفصلة عن خلتهم لله، ولا يتنافى مع قوله (ولا خلة). إنما الموضوع الحقيقي الذي أراد أن ينبه إليه هو أنكم لو أردتم أن تتخذوا الله خليلا لكم فاتخذوه الآن.. وإلا لن يكون لكم خليلا في ذلك اليوم؛ وعندئذ لن تنفعكم خلة أولئك الذين تتخذونهم اليوم أخلاء، وإنما يصبحون لكم أعداء. ولكن المتقين فقط هم الذين لن يعادوا أخلاءهم، لأن المؤمن خليله هو الله. فالمراد نفي الخلة التي تتعارض مع خلة الله تعالى.

وقوله (ولا شفاعة) يعني عليكم أن تنشئوا الصلة بالله هنا وتتخذوه صديقا لكم وإلا لن يكون لكم صديق في الآخرة. وقال في موضع آخر: (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون) (الأنعام: ٥٢). وكذلك قال في موضع آخر (وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت، ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل ولا يؤخذ منها) (الأنعام: ٧١).

يتبين من هذه الآيات أن الذين يتخذون الله في هذه الدنيا وليا وشفيعا لهم، هم الذين ينالون حق الشجاعة يوم القيامة، أما من سواهم فلن يكون لهم هذا الحق ولن يُشفع لهم أبدا. ووُصف الله هنا بالشفيع لأنه بدون إذنه لا يمكن أن يشفع أحد، فهو الشفيع الحقيقي. قال الله تعالى (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) (طه: ١١٠). فثبت بذلك أن الشفاعة يوم القيامة من أحد لا تتم إلا بإذن من الله تعالى. والذين يتخذون الله شفيعا يُعطَون حق الشفاعة، ولكن غيرهم لا يعطون هذا الحق. وقال الله في موضع آخر (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) (الأنبياء: ٢٩). وقال أيضا في الآية القادمة (منذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه).

صحيح أنه يتبين من الأحاديث أن النبي والأنبياء السابقين –عليهم السلام، بل وبعضا من أمة محمد ﷺ سوف يشفعون يوم القيامة (ابن ماجة، الزهد). ولكن هذه الأحاديث تعني أن شفاعة أفراد من الأمة المحمدية تكون شفاعة ظلية لشفاعة محمد ﷺ.. لأن الشفاعة الحقيقية هي شفاعته. فهؤلاء يشفعون إلى محمد، وهو يشفع لأجلهم عند الله تعالى. وقد بين الإمام المهدي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام هذه العقيدة فقال: ليس لبني آدم الآن على وجه الأرض أي رسول ولا شفيع إلا محمد المصطفى ﷺ. فحاولوا أنتم أن تُحِبوا هذا النبي ذا الجاه والجلال حبا صادقا، ولا تفضلوا عليه أحدا بأي نوع من الفضيلة، لكي تُكتبوا في السماء من الناجين (سفينة نوح، ص١٥).

فما لم يصل الإنسانُ نفسَه بالله تعالى ورسوله، وما لم يتخذهما شفيعا لن تتيسر له أية شفاعة. ثم قال (والكافرون هم الظالمون).. أي إننا لم نظلم الكفار، ولكنهم هم الظالمون لأنفسهم.

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(٢٥٦)

شرح الكلمات:

الحي –صاحب الحياة الكاملة. عندما يوصف الله بالحياة فإن "الـــ" تفيد الكمال.. فحياته لا تحتاج أي شيء، ولم يعطه أحد شيئا لهذه الحياة، بل إنه بذاته حي منذ الأزل إلى الأبد.

القيوم –قام يقوم، ومنه القيّم: المراقب المتولي. والقيِّم المستقيم. أمر قيِّم: لا عوج فيه. القيّوم والقيّام: الذي يقوم بذاته ولا تكون له بداية (الأقرب). والقيوم ليس من يقوم بذاته فحسب، وإنما يقيم الآخرين ويحفظهم. القائم. الحافظ لكل شيء والمعطي له ما به قوامه. فالله قيوم لأنه قائم بذاته، كما يودع هو الأشياءَ الأخرى القُوى التي تقوم بها (المفردات).

وصفة القيوم تشير إشارة ما يوجد بين الأجرام الفلكية من قوى الجاذبية وما يوجد بين الجُسيمات الدقيقة من روابط تحفظها في دوران بعضها حول بعض.

سِنة–السِّنة من الوسن. وسَن الرجل: أخذه ثقل النوم. والسنة هي النعاس الذي يستولي على الإنسان بسبب غلبة النوم (الأقرب).

كرسيه–الكرسي من الكَرْس، وهو جمع الأجزاء المتفرقة. يقال كرست البناء فتكرَّس: وضعت اللبنات فوق بعض حتى صار بناء. والكرسي: العلم؛ الحُكم

(المفردات). والمعنى الحقيقي للكرسي هو جمع الشيء وتركيبه. وما دام العلم يجمع المعلومات المتفرقة، والحُكم يضم المناطق المتفرقة لذلك يسمى كل منهما الكرسي.

التفسير: أول ما وجه الله به نظر الإنسان إليه هو حقيقة أن (الله لا إله إلا هو).. أي أيها الإنسان، انظر إلى الله.. فهو معبودك الوحيد الذي لا معبود سواه. إن كل شيء في العالم يكتسب قدره وقيمته بندرته. فمثلا، الماء ضروري جدا للحياة، ولكن الناس عموما لا يحتفظون به لأنهم يعرفون أنهم يستطيعون الحصول عليه بسهولة عند الحاجة. كذلك الهواء ضروري للحياة، ولكن لا يحتفظ به الإنسان لأنه يعرف أنه في متناوله عند الحاجة يتنفس منه ما يشاء. ولكن نفس هذا الماء الضروري الذي لا يقيم له الناس وزنا كبيرا.. يصبح شيئا ثمينا غاليا جدا إذا كان الإنسان في فلاة لا ماء فيها. لو كان عند المرء قطرات من الماء فلن يستبدل بها شيئا مهما غلا. فالشيء تزداد قيمته وتقل بقدر الحاجة إليه وإقبال الناس عليه. الغلال مثلا إذا كثرت هبط ثمنها، وإذا شحّت ارتفع ثمنها أضعافا.

كذلك لو كان في الدنيا أكثر من إله لقال البعض: إذا لم يتيسر لي هذا الإله فسأجد إلها غيره. ولكن الله يقول: كلا، بل الله واحد لا إله إلا هو. فلو قال أحد إنني أترك هذا وأذهب إلى ذاك فلن يجد سواه.. .لأنه إله واحد.. لا اثنان أو مائة أو آلاف. فما دام واحدا فكيف تتركونه وتذهبون إلى آخر غير موجود. أنتم في حاجة إليه في كل وقت وحين. لو غضب ملك في الدنيا على أحد، استطاع هذا أن يقول: لا بأس، أترك بلده وأذهب إلى بلد آخر. إذا ظلمني ملك الصين أذهب إلى ملك إيران، وإذا وجدت هذا ظالما ذهبت إلى ملك إنجلترا. ولكن أين يفرون من الله تعالى؟ ليس هناك أرض إلا وهي لله، وليس هناك حُكم إلا هو تحت قبضته سبحانه. ثم ليس هناك إله آخر يستطيع الإنسان الاستعانة به.

يعتقد الهندوس في آلهة كثيرة، وأن هؤلاء الآلهة يتشاجرون فيما بينهم. والمشهور عندهم أن الإله (شو) غضب على أحد الناس وأهلكه، ولكن الإله (براهما) كان يحب هذا الإنسان فقال: أنا الخالق وسوف أحييه، فأحياه، ولكن (شو) أهلكه مرة

أخرى، فأحياه براهما ثانية، وهكذا استمرت الخصومة بينهما: هذا يهلكه وذاك يحييه! هذه أفكار الهندوس. أما عندنا فلا وجود لمثل هذه الآلهة.. واحد يُهلك والثاني يُحيي، أو هذا يغضب وذاك يرضى.

إذا كان عند سيد خادم فيمكن أن يرفض الخادم خدمته، لأنه يعلم أنه سيجد عملا عند سيد آخر، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يقول ذلك لله لأنه السيد الوحيد جل علاه.

ثم إن إلهنا إله حي يبقى حيا إلى الأبد. كان حيا زمن آدم، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.. وهو لا يزال حيا إلى اليوم، وسوف يبقى حيا مهما طال الزمن، ولسوف يُظهر الآيات الدالة على حياته إلى الأبد.. لأنه الحي القيوم، ولأنه لا تأخذه سنة ولا نوم. فكيف يمكن أن تنتهي آيات حياته؟ عندما ينشئ الإنسان صلة بإله كهذا فإنه -عز وجل- يكفله ويسد حاجاته بنفسه، ويُظهر لتأييده آيات غير عادية باستمرار.

لقد رأينا الناس يأتمنون الخليفة الأول للمهدي، وكان ينفق من هذه الأمانات بحسب الحاجة؛ فيقول: إن الله تعالى يرزقنا بهذا السبيل من فضله. وقد جرّبنا معه أن أصحاب الأمانات كانوا يأتونه فجأة ليستردوها. وكان حضرته بسيط الطبع، لا يحب أن يفرط في شيء حتى قصاصات الورق، وعندما كان يطالبه صاحب الأمانة كان يأخذ ورقة عادية ويكتب فيها لأهله أن أرسلوا أمانة فلان مائة روبية مثلا. وكان أهله أحيانا يقولون: لقد أنفقنا هذا المال أو بقي منه كذا فقط. فكان يقول لصاحب الأمانة انتظر قليلا فلسوف يأتي المال إن شاء الله. وبينما نحن في هذا إذا بشخص رث الثياب يأتي من مكان بعيد ويسلمه مالا بنفس المقدار المطلوب ليحفظه أمانة له.

في أحد الأيام وقع حادث غريب طريف. جاءه صاحب أمانة يطلبها ولكن لم يكن عنده أي مال، وفي نفس الوقت جاء شخص للعلاج[١٧] وقدم إليه ظرفا فيه بعض

[١٧] كان حضرته طبيبا مشهورا في الهند كلها.

المال. وكان الحافظ روشن علي رضي الله عنه يعرف مقدار المبلغ الذي يطالب به صاحب الأمانة، فقال الخليفة الأول للحافظ، انظر كم من المبلغ في الظرف. فعدّه وقال نفس المبلغ الذي تحتاج إليه. فقال: أعط صاحب الأمانة إياه!

وكان يحكى لنا قصة أحد الأسلاف الأولياء.. قال في إحدى المرات جاءه أحد الدائنين وقال له: لي عليك مبلغ كذا وقد مضت عليه مدة طويلة، فعليك أن تسدده الآن. فقال: ليس معي شيء لأدفعه لك، وعندما يأتيني مال فسأرده لك. فقال الرجل: تتظاهر أمام الناس بالصلاح والولاية ولا تسدد للناس أموالهم! أهذا دأب الصالحين؟ بينما هم في ذلك إذ جاء صبي يبيع الحلوى، فاشترى منه الولي بعض الحلوى بنصف دينار ووزعه على الحاضرين بما فيهم هذا الدائن. وعندما طالبه الصبي بدفع ثمن الحلوى قال: ليس معي حتى ربع دينار، وأنت تطالبني بنصف دينار! فبدأ الصبي يبكي ويصرخ، وبرؤية هذا المشهد قال الدائن: ما أغرب سيرتك! لقد سلبتني مالي، والآن تسلب هذا الصبي ربع دينار أيضا. وطفق الدائنان يصيحان، والرجل الصالح جالس في مكانه مطمئنا، حتى جاء شخص وأخرج من جيبه كيسا، وسلمه له قائلا: أرسل لك الأمير هدية. وعندما فتحه وجد فيه مالا بقدر ما يطلبه الدائن، ولكن لم يكن هناك ربع دينار للصبي. فقال للرسول: هذا الكيس لا يخصني فخذه، وبسماع ذلك اصفر وجه الرسول، وأخرج على الفور من جيبه كيسا آخر، وقال: لقد أخطأت فهذا هو الكيس الذي لك. ولما فتحه وجد فيه نفس المبلغ الذي يطلبه الدائن ومعه أيضا ربع الدينار. فسلم المبلغ لهما. فالله تعالى حي، يُري مثل هذه الآيات نصرة وتأييدا لعباده على الدوام.

ثم إنه (القيوم). قد يفكر أحدهم: إنني أخدم هذا السيد الآن، ولكن من قبل كنت أعمل عند ذلك فله على أياد، ويجب أن أحترمه هو أيضا. يقول الله تعالى: لست إلها لكم اليوم فحسب، بل أنا إلهكم منذ بدايتكم. وليس لأحد سواي يد عليكم بل أنا الإله القائم منذ الأزل الذي يعطي الجميع وجودهم، فلا يمكن أن يكون لأحد غيري منّة عليكم.

ثم يقول (لا تأخذه سنة ولا نوم). قد يقول أحد: قَبِلنا أنه لا يكون إله إلا الله، وأنه حي أزلي أبدي، وهو سيدنا الآن ومن قبل أيضا.. ولكن قد يستولي عليه النوم أو النعاس.. فتقوم حاشيته مقامه، ولا بد عندئذ من إرضائهم وكسب ودّهم. يقول الله تعالى: إن إلهكم إله لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تظنوه كالملوك والحكام الدنيويين الذين تحتاجون لإرضاء حاشيتهم. إن إلهكم يقظ دائما يراقب كل شيء بنفسه.

ما ألطف كلام الله! يقول (لا تأخذه سنة ولا نوم).. في حين أن القاعدة في ترتيب الكلام أن يُبدأ بالصغير ثم الكبير وإلا كان خطأ، فعند النفي لا يقال مثلا: فلان لا هو أعرج ولا كسيح، وإنما يقال: لا هو كسيح ولا أعرج. ما دام الله قد نفى هنا عن نفسه السِّنة فقد نفى النوم تلقائيا، فلماذا قال بعد ذكر السِّنة (ولا نوم)؟

فلنتذكر أن هناك حكمة في هذا الترتيب. فالسِّنة تستولي على الإنسان من شدة النوم، وما لم يكن الإنسان في نوم عميق لا تأخذه سنة. فيقول الله تعالى إنه لا يرهقه عمله بحيث يصاب بالسِّنة وتشتد عليه غلبة النوم ويغلق جفنه، كما لا يصاب بالنوم العادي. فبحسب الترتيب البياني وجب أن يذكر السِّنة أولا ثم النوم، وهذا ما فعل.

قوله (له ما في السماوات وما في الأرض).. إن سيدكم وإلهكم يملك كل ما في السماوات والأرض جميعا، فكيف يمكن أن تتخذوا من دونه سيدا؟

ويقول البعض: لا نعبد أحدا سوى الله، ولكننا نقدم النذور لبعض خلقه، ونطلب منهم شيئا من الحاجات، لأنهم مقربون إلى الله تعالى وسوف يشفعون لنا عنده. فيرد الله: (منذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)؟.. من يملك الشفاعة أمامنا بدون إذن منا؟ آمالكم هذه في غير محلها وخاطئة. في زمننا هذا.. منذا الذي يكون أقرب إلى الله من المهدي والمسيح الموعود؟ كان مرة يدعو الله تعالى من أجل عبد الرحيم خان ابن النواب محمد علي خان، وكان هذا الولد مصابا بمرض شديد جدا، وأثناء الابتهال والدعاء تلقّى سيدنا المهدي إلهاما يقول: القدر مُبْرَمٌ والهلاك مقدر. ففكّر حضرته أن الرجل هاجر إلى قاديان تاركا وراءه كل ما كان يملك، فإذا توفي ابنه

فسوف يمر في ابتلاء شديد الوطأة.. لذلك مضى سيدنا المهدي يتوسل إلى الله تعالى ويلح في الدعاء وقال: يا رب، إني أشفع عندك لشفاء هذا الولد. فتلقّى إلهاما شديدا يقول: منذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ قال: عندما تلقيتُ هذا الوحي سقطتُ على الأرض، وأخذتني رعدة شديدة، وأوشكت على الموت. وعندئذ ناداني ربي قائلا: إنك أنت المُجاز. أي الآن نأذن لك بالشفاعة. فشفعت له، وتقبل الله الشفاعة. وشفى عبد الرحيم خان (التذكرة، مجموعة إلهامات وكشوف سيدنا المهدي، ص٤٩٦).

انظروا إلى سيدنا المهدي. كم كان محظوظا بقرب من الله تعالى، وكان إنسانا ذا قدر عظيم. كان الناس ينتظرونه منذ ثلاثة عشر قرنا، ولكن عندما يشفع يؤنبه الله تعالى: منذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ فما بالك بالأناس العاديين ليشفعوا عنده!

يتبيّن من الأحاديث أنه يوم القيامة يأذن الله لسيدنا محمد ﷺ ثم يشفع للناس (الترمذي، صفة القيامة). فما دام الأمر كذلك، فما أشد حمقا من يظن أن فلانا سوف يشفع له عند الله!

بقيت مسألة. ربما يقول أحد: نعم، لا يمكن أن يشفع أحد إلا بإذنه، ولكن كما يكون للملك حاشية يمكن أن يكون للمواطن أن يتوسل إلى الملك عن طريقهم.. كذلك يكون لله تعالى حاشية. يدحض الله هذه الفكرة ويقول: ألا يعرف هؤلاء الحمقى لماذا يكون مع الملك الدنيوي حاشية؟ إنه يحتفظ بحاشية ليجمعوا له المعلومات ويخبروه بما يجري في البلد.. لأنه لا يعرف ما يدور في البلد. أما الله تعالى فيعلم كل ما قدمتم وأخرتم في حياتكم، فلا حاجة له في حاشية ليستعين بهم.

وقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) له مدلولان —الأول: أن الله يعلم ما فعلوا في الماضي وما سيفعلون في المستقبل، والثاني: أنه تعالى يعلم ما يفعلون حاليا، ويعلم ما كان يجب عليهم أن يفعلوه في الماضي ولكنهم لم يفعلوه وتركوه وراء ظهورهم. فما الداعي لأن تكون له حاشية؟

وقوله (لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) يعني لا يستطيع أحد بجهوده الشخصية أن يعرف حقيقة علومه. نعم، إذا أطلع الله أحدا على بعض علمه فإنه يعرف بقدر ما يكشفه الله له ولا شيء أكثر من ذلك.

لقد بيّن الله في هذه الآية أنه لا يستطيع أحد الإحاطة بعلومه.. لا محمد ولا أي شخص آخر. صحيح أن النبي محمد ﷺ كان سيد الأنبياء عليهم السلام، وأحب الناس إلى الله، بل إن اتباع محمد يُكسب الإنسان حب الله تعالى.. ومع ذلك كان مخلوقا لله محتاجا إليه، وكان يتصف بصفات العباد، ولم يتصف بصفات الله الخاصة به.

كما أن قوله (ولا يحيطون بشيء من علمه) يوجه النظر إلى أنه لا نهاية ولا حدَّ لسُبل ومدارج التقرب إلى الله، حتى لا يظن أحد أنه يستطيع أن يحوز عليها كلية.

كلما اقترب الإنسان إلى الله وجذب في نفسه –بحسب درجته ومرتبته في التقرب إلى الله –أنواره وبركاته.. تفضل الله تعالى عليه بتجليه الثاني. وعندما يتحمل هذا التجلي الثاني، ويرى الله أنه صار جديرا لتحمل التجلي الثالث تجلى به الله عليه.. وهكذا يزداد قربا إلى الله باستمرار. وقد وضح النبي ﷺ هذه الكيفية بمثال رائع جدا.. فقال: يقول الله لآخر نزيل في جهنم: سلني ما بدا لك، فيقول: أسألك أن تخرجني من جهنم: فيخرجه منها. فتُرتفع له شجرة، فيقول، أي رب، أدْنِني من هذه الشجرة، فلأستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله: يا ابن آدم، لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا يارب، ويعاهده ألا يسأل غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب ماءها. ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولَى، فيقول: أي رب، أدْنِني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول يا ابن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاعده ألا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها و يشرب ماءها . ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب، أدنني من هذه فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول: يابن أدم، ألم تعاهدني ألا

تسألني غيرها؟ و ربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي ربِّ، أدخلنيها. فيقول: يا ابن آدم، ما ابن آدم، ما يصريني [أي يخلصني] منك؟ أرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟.. فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قدير (مشكاة، الفتن). وفي رواية: (فيضحك الله –عز وجل– منه،ثم يأذن له في دخول الجنة) (البخاري ، الأذان).

هكذا يُري الله في البداية تجليا خفيفا، فلا يصبر أولئك الذين يشبهون الملائكة في صفاتهم على هذا التجلي، وإنما يدعون من الله أن يريهم تجليا كاملا.. فيريهم الله تعالى تجليا أعلى، ثم تجليا أكمل.. ويستمر هذا الموضوع، وعلى أية حال، فإن ذات الله تعالى غير محدودة ولا يمكن أن يحيط به أحد.

قوله: (وسع كرسيه السماوات والأرض) يعني أن علم الله يحيط ويسع السماوات والأرض. فعلمه نهائي بكل شيء، وليس هناك ما يخرج عن علمه. إن علم الإنسان محدود جدا. أحيانا يظن شيئا خيرا له، ولكن تكون النتيجة وخيمة، كما جرى مع سيدنا المهدي، فقد علم عن (مير عباس علي اللدهيانوي) المرتد أنه رجل صالح، فبدأ في مدحه.. لأنه لم يُعط حتى ذلك الوقت علما بمصيره، و لم يعرف أنه سيرتد في يوم من الأيام، ولكن الله بعد ذلك أعلمه بهذا الأمر. فعِلم الإنسان إذن محدود جدا، وعلم الله هو الكامل الشامل لكل شيء، ولا يستطيع أحد أن يحيط بعلومه.

كما أن قوله (وسع كرسيه السماوات والأرض) يشير إلى أمر علمي عظيم.. ذلك أنه لا أحد سوى الله يقدر على معرفة سعة هذا الكون. إن التقدم العلمي الذي أحرزه علم الفلك في هذه الأيام لم يكن من قبل أبدا، إنهم اليوم لا يقيسون أبعاد الكون بالأميال ويقولون إن الأرض تبعد عن نجم كذا بعدد كذا من الأميال أو حتى من آلاف الأميال؛ بل يقيسونها بالسنة الضوئية.. أي ما يقطعه الضوء في سنة، وكأن هذا دليل على صدق الله تعالى (الله نور السماوات والأرض) (النور: ٣٦). لأن هذه الآية تبين أنكم لا تستطيعون تقدير سعة السماوات والأرض إلا بالنور وسرعته.

وإذا كانت سرعة الضوء ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية الواحدة.. فإنه يقطع ١٨,٠٠٠,٠٠٠ كيلوا متر في الدقيقة؛ و ٠٠٠ ،٠٠٠ ،٠٨٠ ،١ في الساعة؛ و ٠٠٠ ،٠٠٠ ،٩٢٠ ، ٢٥ في اليوم؛ و ٠٠٠ ،٠٠٠ ،٠٠٠ ،٤٦٠ ،٩ كم في السنة. وهذا ما يسمى بالسنة الضوئية أو المسافة التي يقطعها الضوء في سنة أرضية.

ويقول علماء الفلك إن سعة الكون تقدر بثلاثة آلاف من السنين الضوئية. ومن هذا الرقم تقدر سعة الكون بأنها ٠٠٠ ،٠٠٠ ،٠٠٠ ،٠٠٠ ،٣٨٠ ،٢٨ كم.. أي ثمانية وعشرون ألف مليون مليون كم، ومثل هذه الأعداد التي تفوق التصور تخرج من نطاق الحساب البشري. ثم مع تقدم العلوم يثبت خطأ هذه الأرقام ويتبين أن الكون أوسع من ذلك كثيرا. فبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أعلنوا أن سعة الكون ستة آلاف من السنين الضوئية، ولكن كشفت البحوث التي تمت بعد ذلك خطأ هذا التقدير، وقالوا: لا نستطيع تقدير سعة هذا الكون، لأنه يمتد ويزداد في كل اتجاه كما تنتشر الموجة، وقدروه الآن باثني عشر ألف سنة ضوئية، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) (الزمر: ٦٨). والشيء الذي يكون في يد الله تعالى.. كيف يمكن للإنسان أن يقدره؟ ومن أجل ذلك كلما بلغ العلم البشري قريبا من التقدير الصحيح لسعة الكون، زاده الله اتساعا. وإذن فقد اعترف هذا العلم الجديد أخيرا بصدق قول الله (وسع كرسيه السماوات والأرض)، وأنه لا يستطيع أحد تقدير سعة هذا الكون إلا الله تعالى.

(ولا يؤوده حفظهما).. قد يقول البعض إنه إذا لم يكن لله حاشيته لجمع المعلومات له عن هذا الكون الشاسع.. فلعل له مساعدين يساعدونه في إدارة الكون. ويعلن الله تعالى أنه لا حاجة إلى المساعدين، لأنه سبحانه ينجز كل المهمات بنفسه، وهو قادر على كل شيء، الجميع في قبضته، ولا يصيبه من ذلك تعب أو إرهاق.

وقد يعترض البعض: صحيح أن الله لا يحتاج إلى حاشية أو مساعدين، ولكن ربما يحتاج لما يُظهر جلاله وشوكته.. فيرد الله بقوله (وهو العلي العظيم)! إنه كامل العظمة.. بحيث ليس هناك شيء يزيد من جلاله بالانضمام إليه.. بل كل من يتصل

بالله ينال جلالا وشأنا. فلا تظنوا أن لله حاشية من أي نوع.. لا لجمع المعلومات، ولا للمساعدة في الأعمال، ولا لإظهار قوته وجلاله. وكلمة (العلي) تشير إلى رفعته وسموه، (والعظيم) إلى عظمة قدراته.

هذا هو الإله الذي يقدمه الإسلام. وما أدعى للأسف من أن يتجه الإنسان إلى الآخرين رغم وجود هذا الإله! إذا ترك الإنسان طعاما طيبا شهيا ليأكل النجاسات، أو يدع ملبسا بهيا ليضع على جسده خرقة وسخة.. فهل هذا يُسمى عاقلا؟ كلا، ثم كلا، إنما العاقل من يفضل الأفضل. ولا أحد أفضل من الله جل وعلا.

لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٧)

شرح الكلمات:

الرشد–الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه؛ ضد الغي (الأقرب).

الغي–الضلالة؛ الهلاك؛ الخيبة (الأقرب).

الطاغوت–من طغا يطغى. الطاغوت كل شيء يخرج عن حده ويتمرد. وبهذا المعنى يُطلق الطاغوت على الشيطان (الأقرب). لأنه يحرض الإنسان على التمرد. وكذلك يُطلق على الناس الذين يُبعدون غيرهم عن الله تعالى.

العروة–من الدلو والكوز المِقبض أو الأذن؛ وما يوثق به؛ ما لا يضيع أبدا، فيقال للكلأ الذي يبقى مخضرا عروة؛ النفيس من المال (الأقرب).

التفسير: من العجيب أن الناس يعترضون على الإسلام أنه يأمر بممارسة الجبر لنشر الدين. مع أن الإسلام إذا كان يأمر بالجهاد والقتال كما قال في هذه السورة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)(١٩١).. فإنه أيضا يأمرهم (لا إكراه في الدين). أي إذا سمحنا لكم بالحرب فلا يعني ذلك أن تجبروا الناس على الإسلام، وإنما سمحنا بالقتال لدفع شر العدو وكفّ أذاه ومفاسده. لو أن الإسلام أجاز الجبر

في الدين ما قال من جهة (قاتلوا الذين يقاتلونكم) ومن جهة أخرى (لا إكراه في الدين). فهذه الكلمات الصريحة تدل على أن الإسلام لا يسمح بالجبر في المعاملات الدينية، بل إن السياق يوضح أن الإسلام يخالف مبدأ الجبر في الدين. فمن الخطأ تماما اعتراض المستشرقين المسيحيين أن الإسلام يأمر اتباعه بإدخال الناس فيه بحد السيف. إنما الحقيقة أن الإسلام هو الدين الأول والأوحد الذي علَّم الدنيا أن كل إنسان يتمتع بحرية كاملة فيما يتعلق بالدين. ولا يحق لأحد ممارسة الإكراه في الدين.

قوله تعالى (قد تبين الرشد من الغي) جملة مستأنفة، جاءت جوابا لسؤال مقدَّر. ذلك أنه بعد قول (لا إكراه في الدين) نشأ سؤال طبعي: إذا كان الدين شيئا طيِّبا فلماذا لا يجبر الناس عليه كي يتمتعوا بهذه النعمة. فأجاب الله تعالى: (قد تبين الرشد من الغي) فلا داعي لممارسة الجبر بعد ذلك، وإنما يكفي تقديم هذا الهدي للناس، لأن الحق قد تبين وتميز عن الباطل تماما. وهكذا تبيّن هذه الآية السبب وراء نهي الإسلام عن ممارسة الجبر في أمور الدين. إنما يمارس الجبر من لا يستطيع إثبات وجهة نظره بالدليل والبرهان، أو أن الطرف الآخر لا يقدر على الفهم، فمثلا لأن الطفل صغير ضعيف العقل يُكره على عمل لا يرضاه، ولكن عندما يبلغ الرشد والعقل ويفهم الأمور بنفسه ويميز بين ما يضره وما ينفعه، لا يكره. يقول الله عن الإسلام: لقد بيَّنا كل الأدلة والبراهين فلا حاجة لأن يُقبل بطريق الجبر والإكراه. بل إن الإسلام يرفض أن يقبل أحد دينا دون تعقل وروية.. خوفا أو طمعا في شيء. يقول القرآن الكريم: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله. والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) (المنافقون:٢). إذا كان الإسلام يدعو إلى الانتشار بحد السيف فهل يُعقل أن يصف القرآن بهذه الكلمات من دخلوا في الإسلام نفاقا؟ ذلك أن إيمانهم في هذه الحالة لا بد أن يُعتبر ثمرة هذا التعليم المزعوم. ثم من ذا الذي يدّعي أن تكوين جماعة من المخلصين بحد السيف ممكن؟

كما يقول الله تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (البقرة: ١٩١).. أي إنما يأمر الإسلام بقتال من يحاربون المسلمين باسم الدين ويريدون ردهم عن الإسلام بالإكراه، ومع ذلك يأمر المسلمين (ولا تعتدوا)، وإذا كفوا عن قتالكم فكفوا أنتم أيضا عن محاربتهم. وما دام الحال هذه، فمن الخطأ الفاحش القول بأن الإسلام يأمر أتباعه بالحرب لكي يُدخلوا الآخرين في دين الإسلام. الإسلام لا يأمر بالقتال للقضاء على أديان أخرى مختلفة، وإنما يأمر بالقتال للحفاظ على أديان مختلفة.. كما قال الله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوي عزيز) (الحج: ٤٠-٤١). فيعلن هنا بكل صراحة وجلاء أن الحروب الدينية إنما تجوز ضد قوم يمنعون الآخرين من قول (ربنا الله).. أي يتدخلون في دينهم، ويريدون هدم معابدهم، وردهم عن دينهم، أو يقتلونهم. في هذا الحال يسمح الإسلام بالحرب ضد المعتدين، لأن الإسلام جاء كشاهد محافظ وليس كجبار ظالم.

وقال (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها). ولنعلم أن الكفر يعني الرفض أيا كان الشيء المرفوض. وقد وردت كلمة الكفر في القرآن بالمعنى الحسن والمعنى السيئ أيضا. وفي هذه الآية جاءت بالمعنى الحسن. يقول الله تعالى إن الذين يرفضون ما يأمر به الشيطان أو أصحاب العادات الشيطانية، ويؤمنون بالله إيمانا صادقا، هم ثابتون على صخرة صلبة قوية. وعلى النقيض يقول القرآن أيضا (إن الذين يكفرون بالله..) (النساء: ١٥١)، أي أن هناك أناسا يكفرون بالله أيضا، فالمعنى الظاهري للكلمة ليس رديئا ولا حسنا، وهو الإخفاء والتغطية. وفي اللغة تغطية الشيء السيئ كفر، وتغطية الشيء الحسن أيضا كفر، وإخفاء الحق كفر، وإخفاء الشر أيضا كفر. ولكن ما دامت الكلمة قد استُخدمت في القرآن كثيرا بمعنى رفض الحق، لذلك إذا وردت بدون أي قرينة فيراد بها المعنى السيئ وكذلك الحال بالنسبة للإيمان. فالمؤمن يؤمن بشيء حسن أو

بشيء سيئ. ولكن يكثر استخدامه في الإيمان بما هو حسن، لذلك عندما يُستخدم الإيمان بدون قرينة أدى معنى حسنا، وإن كانت قد وردت كلمة الإيمان في القرآن الكريم بالمعنى السيئ في قوله تعالى (يؤمنون بالجبت والطاغوت) (النساء: ٥٢). أي أنهم يؤمنون بأمور لا نفع فيها ويؤمنون بما هو تعدٍّ للحدود.

وقوله (فمن يكفر بالطاغوت) لا يعني من يكفر بوجود الطاغوت، وإنما من يرفض ما يأمر به الطاغوت، لأن الله قال في مقابل ذلك (يؤمن بالله) أي يطيع ما يأمر به الله. أما إذا قلنا إن المعنى هو أن يكفر بذات الطاغوت فيكون معنى الآية أنه قد ينجو من الهلاك من يرفض وجود الشيطان ويؤمن بوجود الله تعالى، ولكن هذا المعنى خطأ تماما.. لأن القرآن في كلمات صريحة يقول بوجود الله سبحانه ويقول بوجود الشيطان. فالمراد من الكفر والإيمان هنا هو أن من رفض ما يأمر به الشيطان وقبل ما يأمر به الله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

العروة هي ١- المقبض الذي يقبض به على الشيء؛ ٢-العماد الذي يُعتمد عليه؛ ٣- الشيء الذي يرجع إليه الإنسان عند الحاجة؛ ٤- الشيء الذي يبقى دائما ولا يضيع؛ ٥- النفيس من المال.

فإذا أخذنا العروة بمعنى المقبض فيكون الله قد شبه الدين هنا بشيء لطيف موضوع في إناء محفوظ فيه، ويتقدم الإنسان ليأخذ هذا الإناء من عروته، ويمسك به جيدا ويحتفظ به.

والمعنى الثاني أن الدين عماد للإنسان يعتمد عليه كيلا يسقط. فكما أن الإنسان عند صعوده السلم يحتاج متكأ يستند إليه، كذلك الدين مثل متكأ إذا أمسك به الإنسان لا يسقط.

والمعنى الثالث أن الإنسان إذا تمسك بالدين بقوة، فإنه يستطيع أن يرجع إليه عند حلول أي مصيبة ويستعين به.

والمعنى الرابع أنّ الدين هو الشيء القوي الذي يستطيع أن يلوذ به الإنسان في الدنيا والآخرة. أما العلاقات الأخرى فهي مؤقتة وتنقطع واحدة تلو أخرى عند الشدائد. صحيح أن الإنسان يعتبر أقاربه وأصدقاءه رفقة له، ولكن قد يحدث منهم ضعف وعدم وفاء؛ وعندئذ يدرك الإنسان أن العلاقات الحقيقية هي تلك التي تتأسس على الدين، وهي التي تكون مباركة.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٨)

التفسير: عندما يقال في العربية إن زيدا أخذ عمرا من الظلمات إلى النور فيعني أنه هداه إلى طريق النجاح. سواء كان هذا النجاح ماديا أو روحانيا. وهنا يقول الله إنه يأخذ جماعة المؤمنين إلى طريق النجاح روحانيا وماديا، وينجيهم من الفشل والأذى.

قوله (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) المراد من الطاغوت هنا أولئك الذين يقومون مقام الشيطان. هؤلاء يرمون بالناس بعيدا عما يكون عندهم من هدي قليل. لا تظنوا أن الكفار محرمون تماما من النور، فعندما أعلن النبي ﷺ النبوة لم يكن أبو جهل سيئا إلى هذه الدرجة التي قتل عليها. وإنما الواقع أن الإنسان عندما يرفض الحق يصاب قلبه بالصدأ، وتدريجيا يزول عن قلبه ما فيه من نور قليل. كان هناك كثير من الحقائق التي تمسّك بها الناس قبل زمن الإمام المهدي عليه السلام ولكنهم يرفضونها الآن. فمثلا، كان علماء المسلمين يقولون على المنابر منشدين بيتا معناه: أين موسى وأين عيسى؟ هذا ما يحزننا. يريدون أن موسى وعيسى قد ماتا.. أين هما؟ ولكنهم اليوم قد حذفوا هذا البيت

من الكتب[١٨]. كذلك كان منهم من يؤمن باستمرار النبوة بعد سيدنا محمد ﷺ.. ومن هؤلاء الملوي محمد قاسم النانوتوي. فقد قال بكل صراحة في كتابه (تحذير الناس، ص٤٣)أنه يمكن أن يأتي نبي بدون شرع بعد سيدنا محمد ﷺ. ولكن الناس الآن يرفضون ذلك. فقَبْل مبعث النبي يكون عند بعض الناس عقائد طيبة، ولكنهم عندما يرفضون نبيهم، وتقام عليهم الحجة بحسب عقائدهم، فإنهم يتهربون ويرفضون هذه العقائد أيضا. ولكن الذي يقبل الحق يزداد إيمانه يوما بعد يوم.

لقد قلت من قبل إن معنى قوله (يخرجهم من الظلمات إلى النور) أن الذين يصبحون لله يحقق لهم الازدهار كقوم. ولكن لما كان الإنسان يواجه المشاكل عند كل خطوة، فينخدع بعض الناس ويقولون: إذا كان الله يريد النجاح والفلاح للمؤمنين فلماذا تواجههم المشاكل والشدائد.

فلنتذكر أن وعود الازدهار هذه هي للقوم في مجموعهم ولا تكون للأفراد فقط، فلا تتنافى مواجهةُ بعض الأفراد للمشاكل مع هذا الوعد. إذا مات أحد فإن موته ينفع القوم في مجموعهم، فلا يعتبر ميتا بل يبقى حيا. إذا نظرنا إلى الشدائد الظاهرة فإن سيدنا الإمام الحسين رضي الله عنه قد استُشهد، ولكنه لم يفشل في مرامه بل فاز، ولا تزال المبادئ التي ضحّى لأجلها موجودة إلى اليوم، وستبقى إلى يوم الدين. كذلك استُشهد بعض الأنبياء، كما قال سيدنا المهدي صراحة أن سيدنا يحيى قتل (حمامة البشرى، ص٤٩). فما دام النبي نفسه يُقتل، فمنذا الذي ينجو من هذه الشدائد؟ ليس موت فرد أو أفراد دليلا على فشل القوم في مجموعهم.. فاستشهاد الإمام الحسين حقيقة، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ هل يستحسِن أحد ما فعله يزيد؟

[١٨] أي أنهم كانوا يقولون بوفاة عيسى بن مريم، ولكن عندما أعلن سيدنا المهدي أن عيسى قد توفي كالأنبياء الآخرين عارضه المشائخ عنادا، وحذفوا هذا البيت من كتبهم وخطبهم .

أمَّا الإمام الحسين فيحظى بحب الجميع واحترامهم، ويذكرون اسمه بالتوقير والإجلال.

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). قال من قبل إنه لا داعي لممارسة الجبر لنشر الإسلام، لأن الهدى قد تميز من الضلال، أما القتال فقد أمرناكم به لأن العدو يعتدي عليكم ويهاجمكم؛ وهنا بيّن أن مصيركم سيكون حسنا، أمّا أعداؤكم فستكون عاقبتهم غاية في السوء. سوف يكتب الله لكم النجاة، ويلقي بأعدائكم في أغوار الهلاك، فيحترقون دائما في نيران الغيظ والحسرة، ولا يرون حولهم إلا جهنم، ولا يجدون لهم منها مخرجا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظالمِينَ(٢٥٩)

شرح الكلمات:

حاج–حاجّه؛ خاصمه (الأقرب).كلما وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم جاءت بالمعنى السيئ إلا في مكان واحد. ويقول اللغويون إنها لا تأتي بمعنى حسن. فمعناها: الاعوجاج في البحث؛ المجادلة؛ المكابرة.

الملك –الحُكم؛ البلد (الأقرب).

يُحيي –الإحياء أن ينفخ الحياة في شيء، أو يسره، أو يزوده بقوة النمو، أو يعمِّره المكان (الأقرب).

يميت–الإماتة جعْلُ الشيء يموت، أو يحزنه، أو يترع منه قوة النمو (الأقرب).

بُهت–فُقع لونه؛ فزع؛ انغلق فمه و لم يستطع الجواب (الأقرب).

التفسير: يقول المفسرون عن هذه الآية إنها تتحدث عن نقاش كان بين إبراهيم وبين الملك الكافر نمرود حول وجود الله تعالى. قال إبراهيم: ربي الذي يُحيي ويميت؛ وقال الملك: أنا أيضا أحيي وأميت؛ ودعا ببعض السجناء المحكوم عليهم بالإعدام.. فعفا عن بعضهم وأعدم البعض. وعندما رأى إبراهيم أن دليله الأول لم ينفع، فكر في دليل آخر.. قال: ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. فبُهت الذي كفر. وتغلب إبراهيم عليه (الدر المنثور).

ولكنني أرى أن هذا التفسير غير صحيح.. لأن الاثنين –حسب هذا التفسير– سكتا وبُهتا.. بُهت إبراهيم في المسألة الأولى، وبُهت نمرود في المسألة الثانية.. ولذلك لا أرضى بهذا التأويل. وما دام الملك كذابا وجريئا لدرجة أنه يعتبر نفسه إلها.. فكان الممكن أن يرد على الحجة الثانية لإبراهيم قائلا: أنا الذي آتي بالشمس من المشرق، فقل لإلهك أن يأت بها من المغرب. ولكنه لم يقل ذلك؛ ويحكي القرآن أنه بُهت وسكت. وهذا يدل بصراحة على أن المراد غير ما قاله المفسرون. وإلا فإن الناس لا يكفون عن البحث عند الجدال. وإنما يستمرون فيه حول أمور لا جدوى منها، حتى إنهم لا يزالون يجادلون إلى اليوم هل الإنسان موجود أم لا!! ولكن هذا الملك صمت، مما يعني أن هناك موضوعا آخر سكت عنه، وقال: لو أجبتُ عنه لوقعتُ في مشكلة أخرى فلا بد لي من السكوت.

وقد ذكرت الموسوعة اليهودية هذا البحث كما يلي:

مَثَل إبراهيمُ أمام ملك اسمه نمرود. فقال الملك له: ألا تعلم أني أنا الإله أحكم العالم، وأنا أحيي وأنا أميت؟ ولما كان الملك وقومه يعتبرون الشمس أكبر الآلهة، وكانوا يعتبرونها سيدهم. فقال له إبراهيم: لو كنت إلها وحاكما على الكون فأت بالشمس من المغرب بدلا من المشرق، وإذا كنت إلها وحاكما على الكون فأخبرني ماذا في قلبي الآن، وماذا يكون مصيري بعد ذلك، فبُهت نمرود ولم يستطع الجواب. واستمر إبراهيم في كلامه، وقال: أنت ابن كونس، وستفنى كما فني

أبوك. إنك لم تملك أن تُنجي أباك من الموت، ولا تملك نجاة نفسك من الموت(Jewish Encyc تحت كلمة إبراهيم)

كذلك ذُكر هذا الموضوع في التلمود. وهناك فرق بين بيان القرآن الكريم والتلمود. يذكر القرآن موضوع الإحياء والإماتة أولا، ثم يذكر موضوع الشمس، ولكن التلمود يذكر قضية الشمس أولا. ثم إن التلمود يذكر أنه عندما مثل إبراهيم أمام الملك قال الملك: لماذا لا تعبد الأصنام؟ قال إبراهيم: لماذا أعبدُ ما تحرقه النار؟ فقال الملك: أعبد النار إذن. فقال: لماذا أعبد ما يخمده الماء؟ قال الملك: اعبد الماء. قال: الماء تأتي به السحب؟ قال: لماذا لا تعبد السحب؟ قال: الريح تحرك السحب وتذهب بها. فقال لماذا لا تعبد الريح؟ قال: الإنسان يستطيع الاحتماء منها ولا يستطيع الريح التغلب عليه. قال: الملك: إذن اعبدني، فأنا إله للناس. قال إبراهيم: أنت لا تملك شيئا.

وما ورد في التلمود عن هذا الموضوع يشكل بنفسه دليلا عن أن ذكر الحديث عن الشمس لم يدُر أولا وإنما بعد ذكر الإحياء والإماتة. لأنه لو دخل في النقاش عن الشمس لم يستطع أن يمضي فيه، لأنهم كانوا يعتبرون الشمس أكبر الآلهة، والباعث الحقيقي الأول لكل نجاح وفشل، ورقي وانحطاط عندهم. فقد ورد أن ميري داك، كان إلههم الأول، وكان يُعتبر شعاعا من الشمس أو ضوءا للنهار، وكانوا يعتبرونه باعثا حقيقيا لرقي الناس وانحطاطهم. (موسوعة نلسن Nelson تحت كلمة بابلونيا).

ثم إن العقل يؤكد صحة ما قاله القرآن، أولا: لأن البحث يستمر من الأدنى إلى الأعلى، فكان لا بد أن يكون النقاش أولا عن الموت والحياة، ثم يتطرق إلى الشمس، وثانيا: إن سكوت نمرود يدل على أن الحديث عن الشمس كان في آخر الأمر. وثالثا: إنما جيء بإبراهيم إلى نمرود في جريمة كسر الأصنام، ويبدو أن ادعاء نمرود بالألوهية جاء في معرض النقاش، وإلا يكون الكلام بدون ترابط. القرآن يقول أن النقاش كان يدور حول ربِّه.. أي ربه الواحد الأحد، وأثناء النقاش قال

الملك: سأقتلك وأدمرك لأني أنا الحاكم، فقال إبراهيم: إن الله تعالى هو الذي يملك الحياة والموت. قال: لا، أنا أملك الحياة والموت. فأسرع إبراهيم وأوقعه في ورطة بحسب عقيدته وقال: فالشمس –هي أكبر الآلهة عندك– عبث إذن. فبُهت الذي كفر.

هناك بعض الفروق بين الأسماء المذكورة في هذا الحادث، ولكن تبين جليا مما ورد في كتب اليهود –أن القرآن الكريم يشير إلى نفس الحادث، ويؤكد ذلك أيضا قوله تعالى: (ألم تر) فالله يشير بهذه الكلمة إلى حادث له وجود وأثر. إلا أن هناك تقديما وتأخيرا في ذكر بعض الأحداث في البيان اليهودي كما هو المعتاد عندهم.

وقد جاء في التلمود أن هذا الحوار بين إبراهيم ونمرود كان قبل أن يقيم إبراهيم في كنعان. وأرى أن قول إبراهيم لنمرود (ربي الذي يحيي ويميت) لا يعني الموت والحياة في الظاهر، وإنما يعني النجاح والفشل، والعزة والذلة، والعمران والدمار. لقد وعده الله بأرض كنعان وبازدهار أولاده، لذلك قال إبراهيم (ربي الذي يحيي ويميت).. أي هو سبحانه متصف بصفتي الإحياء والإماتة.. يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويجعل النجاح لمن يشاء والفشل لمن يشاء، ويكتب الغلبة لمن يشاء ويلحق الهزيمة بمن يشاء. فقال الملك (أنا أحيي وأميت) أي في يدي هذا الخيار أيضا، أعز من أشاء وأذل من أشاء. وكما ذُكر سابقا أنهم كانوا يعتبرون الشمس أكبر آلهتهم، وكان الملك نفسه يعبدها.. لذلك رد عليه إبراهيم بأن لله قانونا يحكم الشمس، فيأتي بها من المشرق.. فإذا كنت تملك نفع الدنيا وضرها.. فها هي الشمس بازغة أمامك تسير نحو الغرب، فأرجعها من الغرب إلى الشرق، ليكون ذلك دليلا على قدرتك على التصرف في أمور العالم وفي الشمس أيضا. أي إذا كنت أنت الذي تملك زمام هذا العالم نفعا وضرا، فماذا تفعل الشمس إذن؟ وإذا كانت الشمس تنفع وتضر الناس فدعواك بأنك تملك التصرف في العالم باطلة. وكما يذكر التاريخ فإن نمرود بُهت عندئذ ولم يُحِرْ جوابا، لأنه لو أجاب فإما أن يقول: إنني لا أملك النفع والضر، ولكن الشمس هي التي تملك ازدهار الناس

وانحطاطهم. ولو قال ذلك لبطلت دعواه (أنا أحيي وأميت) وإما أن يقول: أنا الذي أتصرف في نفع الناس وضرهم لا الشمس.. فيثور قومه على هذا القول، لأنهم يعبدونها، وهو أيضا كان يعبدها. ولهذا قال القرآن الكريم (فبهت الذي كفر).

وبهذا الحادث دلّل ربنا سبحانه على صدق قوله (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وبيَّن كيف أنه عز وجل ينجي عباده من المشاكل، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم من الفشل إلى النجاح.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦٠)

شرح الكلمات:

كالذي –الكاف: للتشبيه والتمثيل، وأيضا للتأكيد (الأقرب). وهنا وردت بالمعنى الأول.

خاوية–خوى يخوي خواءً البيتُ: سقط وتهدم؛ فرغ وخلا (المنجد).

بل– حرف إضراب أي صرف الأمر إلى ناحية أخرى (المنجد). والإضراب على نوعين: أحدهما للرفض، كما في جاء القرآن الكريم (وقالوا اتخذ الرحمان ولدا سبحانه، بل عباد مكرمون) (الأنبياء: ٢٧). والثاني لصرف الحديث إلى أمر آخر، ولا يراد عندئذ رفض ما سبق من كلام. وهي هنا بهذا المعنى. لأنه تعالى يتطرق في الحديث إلى معنى آخر.

نُنْشِزها –نشز: ارتفع. أنْشَزه: رفعه (الأقرب). ننشزها: نقيمها أو نرفعها.

التفسير: يقول المفسرون أن هذا الحادث وقع مع النبي عُزير. فقد مرَّ ذات يوم على قرية خربة، فقال لله تعالى: كيف تحيي أهل هذه القرية بعد موتهم؟ فأماته الله، وبقي في هذه الحالة مائة عام. وخلال هذه الفترة أحيا الله أهل القرية، ليقدم دليلا على قدرته على إحياء الموتى. وعندما أحياه الله بعد مائة عام قال له: انظر إلى طعامك وشرابك لم يفسدا، وانظر إلى حمارك فقد أحييناه، وكسونا عظامه باللحم بعد أن كانت رميما (الدر المنثور).

وأرى أن ما ذهب إليه المفسرون تبطله الآية نفسها. فأولا: يقول السائل: (أنى يحيي هذه الله بعد موتها).. فهو يسأل عن إحياء هذه القرية وليس عن كيفية إحياء الموتى. لو كان السؤال عن إحياء الموتى فالسائل كان يرى الناس كل يوم يموتون ولا يبعثون في هذه الدنيا بعد موتهم، فكيف يمكن أن ينشأ في قلبه فجأة سؤال عن إحياء الموتى برؤية هذه القرية الخربة؟ كان سؤاله عن إحياء هذه القرية، وكل شخص يعرف أن إحياء القرية بعد خرابها يعني عمرانها، ولا علاقة له بإحياء الموتى.

وثانيا –ماذا يعني قوله (أنى) أيعني متى أم كيف؟ إذا كان الجواب (مائة عام) فمعنى ذلك كلمة "أنى" تعني متى. إذا كان السؤال عن كيفية إحياء الموتى هذه القرية فلا يمكن أن يرد عليه: بعد مائة عام. فهذا الجواب يدل على أن السؤال كان عن مدة إحيائها وليس عن كيفية إحيائها..

وثالثا–يقول الله (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) وهنا ينشأ سؤال: لماذا عومل السائل هكذا؟! إذا كان هدف سيدنا عزيز أن يرى كيف يحيي الله الموتى.. فإن موته لا يحقق هذا الغرض، لأنه بعد موته لا يستطيع أن يرى كيف يحيا الأموات.

ورابعا –إذا كان الغرض قد تحقق بعودته من جديد إلى الحياة.. فهناك اعتراض آخر يرد على قول (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) وهو: لِمَ لَمْ يكتف الله بإماتة الحمار ثم إحيائه كي يُريه قدرته على الإحياء؟ لماذا أماته الله مائة عام؟ هذه إجابة

عجيبة أن يميته الله مائة عام حتى يموت أهله وأولاده في غيابه، ثم يبعثه بعد قرن في أناس غرباء عنه! كذلك لا يستطيع السائل أن يعرف كيفية إحياء الله الموتى بموته هو، وإنما يستطيع ذلك فقط إذا أمات الله أمامه أحدا ثم بعثه بمرأى منه.

وخامسا –لماذا لم يكتف الله بإماتة واحد من أهل القرية ولماذا أمات عزيرا نفسه؟

وسادسا–ماذا كان سؤاله حتى يرد الله عليه (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه)؟ سأل الرجل: متى تحيي هذه القرية؟ ..فهل يكون الجواب: انظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه؟ فإن كلمة (هذه) نفسها تدل على أن السؤال لم يكن عن إحياء الموتى وبعثهم من جديد، وإنما كان عن إحياء هذه القرية وعمرانها من جديد. وعبارة (مائة عام) تدل على أن السؤال لم يكن لمعرفة كيفية الإحياء وإنما لمعرفة مدة إحياء هذه القرية.

وسابعا–ثم إن إحياء الميت فعلا مخالف لسنة الله تعالى، فإنه لا يحيي الأموات في هذه الحياة الدنيا.

وثامنا–إذا كان الله قد أماته مائة عام فلا يمكن أن يؤكد له موته بقوله (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) بل كان عليه أن يقول له: انظر حولك، لقد تغير العالم كله، وهذا دليل على موتك.

إذن فكل هذه الأمور تبين أن ما ذهب إليه المفسرون خطأ. والآن أروي لكم حقيقة هذا الحادث كما أراه.

يقول الله تعالى: انظر إلى ذلك الذي مر على قرية وهي خاوية على سقوفها فقال: يا رب متى تعمِّر هذه القرية مرة أخرى؟ فأراه الله في المنام أنه ميت لمدة مائة عام، ولما قام من نومه سأله: كم لبثت في هذا الحال؟ فقال: يوما أو بعض يوم. فقال الله: هذا صحيح، لكن تذكر أنك رأيت نفسك في هذا الحال ميتا لمدة مائة عام. والدليل على صحة ما تقول أن طعامك وشرابك لم يتغير، أما الدليل على صدق قولنا من أننا أريناك في الرؤيا مشهدا لما سيحدث في مائة عام قادمة.. أنه عندما

يتحقق هذا سوف يسلِّم الناس بأنك كنت على صلة صادقة بالله تعالى. وعندما تبينت له هذه الحقيقة قال: أؤمن بأن الله على كل شيء قدير، وليس بعزيز عليه أن يعمر هذه القرية الخربة مرة أخرى بفضله.

كان سيدنا الخليفة الأول للمهدي يقول إن هذه القرية هي قرية أورشليم القدس التي دمرها "نبوخذنصَّر" وأن الذي مر عليها هو النبي "حزقيال" فكشف الله له أن هذه القرية سوف تعمر خلال مائة سنة (حقائق الفرقان، جزء ١ ص٤١٦). وأرى أن هذا هو التفسير الصحيح لهذه الآية.

ورد هنا أن هذه القرية كانت خاوية على عروشها، أي أنها كانت خربة غير مسكونة بحيث سقطت سقوفها أولا، ثم تهاوت عليها الجدران.. لأن الديار التي لا تُسكن تتهاوى أولا سقوفها، ثم تتداعى الجدران.. ذلك أن السقوف الخشبية ينخر فيها السوس وتزعزعها الرياح فتسقطها، وبعد ذلك تسقط الجدران بفعل المطر.. وتقع على الأسقف. أما المنازل التي تسقط بسبب الزلزال وغيره فإن جدرانها تسقط أولا ثم السقوف. فبقوله هذا أشار إشارة لطيفة أن القرية لم تخرب بزلزال وإنما خربت بسبب هجرة أهلها عنها.

عند رؤية أورشليم الخربة فكر النبي حزقيال في نفسه: متى يحيي الله هذه القرية الخربة؟ وليس المراد من إحياء القرية إحياء أهلها، وإنما المراد عمرانها، كما قال القرآن في موضع آخر (وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيَّ كثيرا) (الفرقان:٤٩,٥٠) وفي موضع ثان: (وأحيينا به بلدة ميتا) (ق: ١٢).. أي بالمطر أحيينا البلدة الميتة. وإحياء المدينة يعني عمرانها وجلب الرفاهية والرخاء إلى أهلها. سأل النبي حزقيال متى تحيي هذه القرية، وبالرؤيا أخبره الله أنها ستعمر خلال مائة سنة.

وهذه الرؤيا التي رواها القرآن الكريم مذكورة في سفر حزقيال؛ والفرق بين الروايتين أن التوراة لا تذكر فترة السنوات المائة. إنه من الأدلة على صدق القرآن

وكماله أنه يذكر أمورا ضرورية لم تذكرها الأسفار السابقة، وهكذا يسد النقص الموجود فيها. على أية حال، فقد ورد في سفر حزقيال: (كانت عليّ يدُ الرب فأخرجني بروح الرب، وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنة عظاما. وأمَّرني عليها من حولها وإذا هي كثيرة جدا على وجه البقعة وإذا هي يابسة جدّا. فقال: لي يا ابن آدم، أتحيا هذه العظام؟ فقلت: يا سيد الرب، أنت تعلم. فقال لي: تنبأ على هذه العظام وقل لها: أيتها العظام اليابسة، اسمعي كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه العظام: هأنذا أدخل فيكم روحا فتحيون، وأضع عليكم عصبا وأكسيكم لحما وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعلمون أني أنا الرب.

فتنبأتُ كما أمِرتُ. وبينما أنا أتنبأ كان صوتٌ وإذا رعشٌ، فتقاربت العظام كلٌّ عظم إلى عظمة. ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لي: تنبأ للروح، تنبأ يا ابن آدم وقل للروح: هكذا قال السيد الرب: هلُمَّ يا روح من الرياح الأربع وهُبّي على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم.. جيشٌ عظيم جدا جدا..

ثم قال لي يا ابن آدم، هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون: يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم هكذا قال السيد الرب. هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي. وأجعل روحي فيكم فتحيون وأجعلكم في أرضكم، فتعلمون أني أنا الرب تكلمت وأفعل. يقول الرب) (حزقيال ٣٧:١-١٤). هذا هو النبأ الذي تنبأ به النبي حزقيال.

والسؤال الآن: إن النبي حزقيال كان عندئذ في السجن ببابل، فكيف مر على هذه القرية؟ يمكن أن يكون مروره على القرية أيضا في المنام.. وهذا يتبين من كلمات التوراة أيضا.

والرد الثاني: أن الملك نبوخذ نصّر البابلي كان هاجم أورشليم وفتحها ٥٨٦ ق.م. وهدم جزءا منها، وأسر ملكها وجميع أفراد عائلته إلى بلده، كما أخذ معه كبار القوم والصناع وأهل الحرف، و لم يترك فيها إلا بعض الأراذل من القوم (الموسوعة اليهودية: كلمة أورشليم). وكان النبي حزقيال من بين هؤلاء الأسرى (حزقيال٣). وقال المؤرخون بأن النبي حزقيال كان يحضّ الناس على محاربة نبوخذنصر، وعلى عدم ترك بلادهم، ولذلك أسره الملك. ويتبين من التاريخ القديم أن الملوك كانوا إذا هدموا قرية وخربوها أخذوا أهلها أسرى ومروا بهم على قريتهم الخربة ليشعروا بمزيد من الذلة ويحسوا بقلة حيلتهم.

وأرى أنه عندما أخذوا النبي حزقيال وجعلوه يمر على قرية أورشليم الخربة.. توسل قائلا: يا رب، ماذا حدث؟ فكلمات (وهي خاوية على عروشها) أيضا تدل على أن هذه الفكرة قد خطرت بباله عندما رأى عروشها المنهارة بعد الهدم فورا، وإلا فإن الناس بعد ذلك يأخذون الأمتعة. قال: يا رب كيف يتم عمران هذه المدينة المنهارة مرة أخرى؟ لقد أسَرَنا العدو نحن الكبار جميعا، وأخذنا معه. فأراه الله مشهد الموت لمائة سنة؛ بمعنى أنه في عالم الكشف رأى نفسه قد مات ثم بعث بعد مائة سنة. وهذا يحدث في المنام، وليس فيه ما يدعو للعجب. الإنسان يموت في المنام ويرى الكثير من المشاهد والمناظر وهو في حالة الموت المنامية هذه. ولما كان حزقيال نبيا لقومه، فالمراد من موته في حالة الكشف هو في الحقيقة موت بني إسرائيل، وأخبره الله بذلك أن بني إسرائيل سوف يبقون في حالة العبودية والانحطاط هذه لمائة عام، وبعد ذلك يهب الله لهم حياة جديدة ويرجعون إلى مدينتهم مرة أخرى، فتعمر.

لا شك أنه ليس هنا أية كلمة للرؤيا، ولكن من أساليب القرآن أنه يروي الرؤى دون ذكر كلمة الرؤيا.. فعندما حكى سيدنا يوسف لأبيه رؤياه التي رأى فيها النجوم والشمس والقمر تسجد له قال القرآن (إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (يوسف:٥) فلم يستخدم هنا كلمة الرؤيا.

وعندما رأى حزقيال هذا المشهد بُعث أي خرج من هذه الحالة الكشفية، وسأله الله تعالى: كم لبثت في هذه الحالة؟ قال: لبثت يوما أو بعض يوم. وهذا أسلوب للكلام يعني: أني لا أعرف تماما. وقد ورد هذا الأسلوب القرآني في مواضع أخرى مثلا: (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين) (المؤمنون: ١١٣-١١٤).. يسأل الله الكفار: كم لبثتم في الأرض من السنين؟ فيقولون: يوما أو بعض يوم، فاسأل من كانوا يعدون الزمن، يعني أننا مكثنا مدة قليلة جدا، أو لا نعرف كم لبثنا.

فكان هذا الجواب من حزقيال تأدبا واحتراما، وقال: لا أدري مشيئة الله من هذا السؤال، ويبدو أنني مكثت بعض الوقت. فقال الله: (بل لبثت مائة عام).. وعلاوة على ما في ذهنك، فهناك جانب آخر هو أنك مكثت مائة عام في هذه الحالة. و (بل) ليست هنا لنفي ما قبلها وإنما لاستئناف كلام جديد.. كما ورد في القرآن الكريم (قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلى. بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) (الأعلى). فما ورد هنا بعد (بل) صحيح، وما جاء قبلها صحيح أيضا، وليس هناك نفي لأي شيء. فالمعنى أن ما فكر فيه حزقيال قول صحيح، لأنه فعلا مكث بضعَ يوم. ثم سرعان ما وجَّه الله نظره إلى موضوع آخر أيضا، فقال: إنك مكثت في هذه الحالة مائة عام. ولما كان كلام حزقيال صحيحا وحتى لا يخطِّئ نفسه أخبره الله: إن ما تقوله أيضا صحيح، والدليل على ذلك أن طعامك وشرابك أمامك لم يطرأ عليهما تغير أو فساد؛ وها هو حمارك أمامك لم يحدث له شيء. نعم، أنت مكثت بضع ساعات في حالة الكشف.. وإلا فإن الذي مكث ميتا لمائة سنة لا يقال له: انظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه.

ثم قال: وأريناك هذه الرؤيا لنجعلك آية للناس. وانظر إلى هذه العظام كيف ننشزها ونكسوها لحما ونقيمها أمامك.

بهذا الكشف والإلهام بشَّره الله بعمران هذه القرية خلال مائة العام القادمة. وبالفعل، بعد مائة سنة تقريبا، هيأ الله أسباب عمران هذه المدينة ورقيها مرة أخرى. لقد تم دمار أورشليم مرتين. المرة الأولى عام ٥٩٧ ق.م. والثانية عام ٥٨٦

ق.م. عند تمرد أهلها. وفي عام ٥١٩ ق.م. بدأ إرساء الأساس لمدينة أورشليم مرة أخرى، واستغرق عمرانها ٣٠ سنة، وتم ذلك بصورة كاملة عام ٤٨٩ ق.م. .. فهذه الفترة هي ٩٧ أي مائة سنة تقريبا بين ٥٨٦ ق.م. إلى ٤٨٩ ق.م. (الموسوعة اليهودية والقاموس التوراتي لـــBlack تحت كلمة أورشليم).

وقوله (وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) جاء مطابقا لقول التوراة الوارد في حزقيال (لقد يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا) (١١:٣٧). وبهذه الكلمات بيّن الله لهذا النبي أنه سوف يحيي أمة اليهود مرة أخرى، وسوف يستعيدون قوتهم وعظمتهم.

وهكذا وجدنا من التوراة أيضا رؤيا تؤيد هذا الحادث. كما ثبت كساء عظام بني إسرائيل باللحم.. ثبت أيضا أسر النبي حزقيال. كما ثبت عمران قرية أورشليم بعد مائة من السنين. كان النبي حزقيال حزينا بسبب ما حدث، ولكن عندما أخبره الله أن هذا الدمار ليس نهائيا، وإنما سيستمر فقط لمائة سنة قال (أعلم أن الله على كل شيء قدير). الآن قد اطمأن قلبي. إن تغير الأحوال يبدو في الظاهر مستحيلا، ولكن التغيير سوف يحدث يقينا، ولسوف يعمر الله القرية مرة أخرى، ويحقق الازدهار لبني إسرائيل.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٦١)

شرح الكلمات:

صُرهن–صار يصور الشيءَ إلى نفسه: أمالَه إليه. وصار الشيءَ –بدون حرف الجر إلى: قطعه (الأقرب). (صرهن إليك) يعني أمِلْهُنَّ إليك، من الصَّوْر أي الميل (المفردات). فالمعنى: ألِّف هذه الطيور معك.

التفسير: يقول الله تعالى: تذكَّرْ عندما قال إبراهيم: يا رب، أرني كيف تحيي الموتى. فقال: أو لم تؤمن؟ قال: بلا، أي أؤمن إيمانا كاملا أن الله يحيي الموتى، وهو قادر على ذلك ولا شك أبدا. ولنتذكر أن أداة (بلى) سواء سبقها نفي أو إثبات، فهي تفيد الإثبات. أما (نعم) فتفيد الإثبات والنفي. فلو أجاب إبراهيم هنا بنعم، لكان المعنى لا أؤمن، أو نعم أؤمن، ولكن بقوله (بلى) أزال كل شبهة للنفي، وبيّن أنه مؤمن حقا.

وبعد ذلك قال (ولكن ليطمئن قلبي).. فاستدرك بحرف (لكن) أي أنني أؤمن بقدرتك على إحياء الموتى. كل ما في الأمر أني أريد شيئا زائدا.. أريد أن يطمئن قلبي بأن الله سوف يحيي قومي بصفة خاصة. ومثال ذلك أن يكون هناك مريض، وهو يؤمن أن الله قادر على شفاء المرضى، ولكنه لن يطمئن أن الله سوف يشفيه هو أيضا.. ما لم يخبره الله بذلك، أو مثلا : يعرف الجميع أن الناس يشبعون بعد الجوع، ولكن هل هذا العلم يجعل أحد الجائعين يستيقن أنه سينال طعاما وأنه نفسه سوف يشبع؟ فالإيمان يتعلق بأمر غيبي مختفٍ عن نظر المؤمن، ويدل على يقينه الكامل بحدوث ذلك الشيء أو إمكانية حدوثه. أما الاطمئنان فإنه يأتي مقابل الشك أو مقابل الكرب والاضطراب. في الآية هنا لا يراد بالاطمئنان ذلك الذي يكون مقابل الشك، وإنما الذي يكون مقابل الكرب والاضطراب، ذلك لأن إيمانه ثابت مما قاله آنفا. كان إبراهيم مؤمنا بأن الله قادر على إحياء الموتى، ولكنه كان يريد أن يزول اضطرابه ويطمئن أن الله سوف يتجلى بقدرة الإحياء على قومه، ويحييهم مرة أخرى من فضله.

فقال الله له: خذ أربعة من الطير، وعامِلْها بتودد حتى تألفك، ثم ضعْ جزءا منها على كل جبل، ثم ادعها فتسرع إليك. واعلم أن الله غالب وذو حكمة.

يقول المفسرون إن الله تعالى أمر إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير ويفرم لحمها، ثم يضمه إليه، ثم يوزعه على الجبال. ولكن هذا المعنى خطأ ومخالف للأسلوب العربي.

ذلك أنه لا معنى لأن يفرم المرء الطيور ويضم لحمها إليه. فالمعنى الصحيح هو أمِلْهُن إليك وألِّف بينها وبينك. كما ورد في المفردات والأقرب.

ويستدل البعض بكلمة (جزءا) على أن المراد هو فرم لحم الطير، ثم يأخذ جزءا من هذا اللحم المفروم ويجعله على الجبال؛ وهذا أيضا خطأ. فليس المراد جزءا من لحم الطيور، وإنما المراد جزء من هذه الطيور الأربعة، أي واحد منها.. بمعنى: ضعْ كل واحد من هذه الطيور على جبل. ونظير ذلك في القرآن الكريم: (إن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) (الحجر٤٤-٤٥). أي أن لكل باب من أبواب جهنم جزءا من هؤلاء الكفار. لا يفسر أحد كلمة جزء هنا أن يفرم لحم الكفار ويخلطه ويُؤخذ جزء منه إلى كل باب من أبواب جهنم، بل أجمع المفسرون على أن بعضا من هؤلاء الكفار يدخلون من باب، والبعض الآخر من باب ثان، وهكذا (روح البيان). فقد بيّنت هذه الآية معنى (جزء) ووضحت أن الجزء من جماعةٍ فردٌ أو عدد من أفرادها. وفي آيتنا هذه (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) لا يعني جزءا من اللحم المفروم؛ بل المراد: ضع طائرا منها على جبل، وثانيا على جبل ثان.. وهكذا.

لو أخذنا بالمعنى الظاهري لكان محلا لاعتراضات كثيرة. أولها: ما علاقة إحياء الموتى باستمالة الطيور؟ ثانيا: لماذا أربعة طيور؟ ألا يكفي واحد لتحقيق الغرض؟ ثالثا: ما الفائدة من وضعها على الجبال؟ ألا يكفي أن توضع في أي مكان آخر؟

الحقيقة أنه لا يمكن أخذ الكلام هنا حرفيا، وإنما له مدلول مجازي. لقد دعا إبراهيم: يا رب، لقد عهدتَ إليَّ بمهمة إحياء الموتى، فحقِّق لي هذه المهمة، وأرِني كيف تنفخ الروح في قومي. لقد أصبحت شيخا كبيرا، والمهمة ضخمة. فقال الله: ما دمنا قد وعدناك فلسوف يتحقق هذا الوعد. قال إبراهيم: أعلمُ أن هذا سوف يتحقق، ولكن أسألك على سبيل الاطمئنان، كيف تتغير هذه الأحوال غير المواتية؟ قال الله: عليك بتربية أربعة من أولادك، ليلبوا نداءك، ويكملوا مهمتك من إحياء القوم. وهؤلاء الطيور الأربعة الروحانيون هم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف

عليهم السلام. لقد تمت تربية اثنين منهم على يد إبراهيم مباشرة، وتربية اثنين بطريق غير مباشر، والمراد من وضعهم على الجبل أن يربيهم في مستوى رفيع. وفي هذا أيضا إشارة إلى أنهم ذوو درجات عالية، ويبلغون الذُّرى في الروحانية. والمراد من وضع كل واحد منهم على جبل منفصل.. أن هذا الإحياء لأمته سوف يتم على فترات أربعة منفصلة، وبذلك كشف الله له صورة للإحياء القومي الذي كان سيتم قريبا من بعده. كما أشير فيه أيضا إلى أربعة أدوار من الرقي تأتي على قوم إبراهيم على المدى البعيد.

باختصار قال إبراهيم عليه السلام: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى؟ فقال الله: ألم تؤمن بقدرتي؟ قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي.. أي إني أرى أنك تحيي الموتى، فلا أملك إلا الإقرار بذلك، ولكن قلبي يريد أن تتحقق آيتك هذه في نفسي، فتُظهر قدرتك هذه في حق أولادي أيضا، فقال الله: ستموت أمتك أربع مرات، وسوف نحييها أربع مرات. وبالفعل تم هذا، فأولا في زمن موسى عليه السلام رُفع نداء إبراهيم على لسان موسى. فتم إحياء هذا الميت لأول مرة. ثم رُفع هذا النداء في زمن عيسى عليه السلام، وأُحيِيَ هذا الميت. ثم في زمن رسولنا محمد ﷺ رُفع هذا النداء الإبراهيمي وقام قومه من الموت إلى الحياة. وفي المرة الرابعة في زمن الإمام المهدي رفع هذا النداء وأعيدت الحياة إلى هذا الميت. نادى إبراهيم ذريته أربع مرات، واجتمعوا حوله أربع مرات. الطير الأول الذي ناداه إبراهيم ونال بذلك اطمئنان القلب هو قوم موسى، والطير الثاني هو أمة عيسى، والطير الثالث هو جماعة محمد ذات المظهر الجلالي المحمدي، والطير الرابع هو الجماعة الإسلامية الأحمدية ذات المظهر الجمالي الأحمدي. وهكذا أراح الله قلب إبراهيم. فقال: نعم، إن ربي يحيي الموتى.

وقوله (بلى، ولكن ليطمئن قلبي) إنما يعني أن لساني وعقلي وفكري وحواسي ومشاهدتي تقر بأنك تحيي الموتى، فكل يوم أرى أنك تحييهم، ولكن إذا لم يهتدِ أولادي فلن يطمئن قلبي، ولاطمئنان قلبي أسألك آية تتحقق في أولادي. فقال الله

له: سوف نحيي أولادك أربع مرات، ونتفضل عليهم بأفضال خاصة أربع مرات. ولقد تحقق هذا الوعد في هذه الأدوار الأربعة، وأنزل الله أفضالا خاصة على أولاد إبراهيم، وأحياهم حياة روحانية.

فهذا نبأ للزمن البعيد والقريب كليهما بإحياء قوم إبراهيم، وقد تحقق النبأ في وقته بكل روعة، وتبين للناس أن الله عزيز حكيم.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦٢)

شرح الكلمات:

يضاعف–أقل الضعف محصور وهو مثل الواحد، وأكثره غير محصور (كليات أبي البقاء).

التفسير: في الآيات السابقة ضرب الله ثلاثة أمثلة للإحياء القومي، وفي هذه الآية ضرب المثال الرابع وقال: إذا أنفقتم أموالكم في خدمة الدين.. فكما ينبت الله حبة واحدة سبعمائة حبة كذلك سوف يبارك الله في أموالكم بل يزيد على ذلك. قال (والله يضاعف لمن يشاء). والتاريخ شاهد على أن هذا ما يحدث تماما. صحيح أن أبا بكر قدم تضحيات جسيمة، ولكن أين هذه التضحيات من تلك النعمة العظيمة التي أسبغها الله على أبي بكر. إذ جعله الخليفة الأول للرسول ﷺ! كذلك أنفق عمر كثيرا، ولكن ما أعظم الجائزة التي نالها! وبالمثل عثمان نال في هذه الدنيا آلاف الأضعاف لما أنفق في خدمة الدين. وإذا تحرَّينا حال كل فرد من الصحابة وجدنا أن الله قد عامله بنفس المعاملة. خذوا على سبيل المثال عبد الرحمن بن عوف؛ عندما توفي ترك ما يساوي ثلاثين مليونا من الروبيات، فضلا عما كان ينفقه في حياته في سبيل الله بالملايين (أسد الغابة). وكذلك الصحابة الذين تركوا أوطانهم وجدوا أوطانا أفضل، والذين تركوا إخوانهم وأخواتهم وجودوا أفضل منهم،

والذين غادروا آباءهم وجدوا أفضل أبٍ في النبي ﷺ. لم يحرِم اللهُ أحدا ممن ضحوا في سبيله من جزاء أفضل مما بذلوا وأنفقوا.

(والله واسع عليم) قال: ما المبرر أن يبخل الله جل علاه؟ كان من الممكن أن يبخل لو كان يعاني من قِلة فيما عنده. ولكنه (واسع).. ذو سعة ورخاء كبير. ثم هو (عليم).. يعلم كم يستحق كل واحد من الجائزة. فإذا كان أحد يستحق الملايين فهو قادر على أن يعطيه الملايين. إننا نرى كل يوم في حياتنا أن الفلاح يرمي الحبَّة في الأرض فيخرج الله له سبعمائة حبة. فالذي ينفق أمواله في سبيل الله.. كيف يمكن أن يضيع الله أمواله؟ لا بد أن يعيدها إليه مضاعفة إلى سبعمائة ضعف. والله قادر على أن يعطيه أكثر من ذلك. لو أنه حدد حدًّا أقصى لعطائه لكان معنى ذلك أن ذات الله سبحانه محدودة. وهذا عيب لا يجوز على الله تعالى، ولذلك قال لو أنفقتم في سبيل الله حبة واحدة لأعادها إليكم سبعمائة حبة على الأقل. أما الزيادة على ذلك فلا حد لها؛ كما لا نهاية لأنواع هذا الجزاء . لقد قال المسيح في الإنجيل: (اكتروا لكم كنوزا في السماء حيث لا يُفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون) (متى ٦:٢٠). أما القرآن فيقول عن الأموال أنكم لو جمعتموها في خزانة الله فلا يكون احتمال فساد أو سرقة، فضلا عن أنها سوف تُرَدّ إليكم هذه الأموال بزيادة تبلغ سبعمائة ضعف على الأقل، ويمكن أن تزيد عن ذلك بلا حدود. أما عن الغلال فيقول المسيح إنه في السماء ولا يصيبها السوس. ولكن القرآن يقول إن حباتكم التي تحفظونها عند الله لا مجال للتفكير في إصابتها بالسوس، بل هناك زيادة وربح يصل إلى سبعمائة ضعف وأكثر.

لا شك أن الله تعالى ليس بحاجة إلى معونة من أحد، ولكنه—رحمة بعباده– يتيح لهم الفرص لأداء خدمة يرفع بها درجاتهم. فعندما يبعث الله أحد أنبيائه لا بد أن ينشئ جماعة تكون بدايتها بسيطة.. بحيث لا يتصور عنها أهل الدنيا أنها تفلح في مرامها؛ ولكن الله يغيِّر نظام العالم فعلا عن طريقهم، وعندئذ يدرك أهل الدنيا أن

الله تعالى موجود وحَيّ، وليس هناك مستحيل أمامه. وفي زمن الأنبياء يهيئ الله الفرصة لأممهم لخدمة الدين. وبما أن ذلك الوقت هو وقت إقامة عالم جديد، لذلك تُفتح أمامهم أبواب بذل التضحيات، وهذا هو وقت نيل الثواب.

وعلاوة على المعنى المذكور آنفا فإن الآية توجه النظر إلى إمكانية زيادة الغلال أيضا، وتبيّن أنه في بعض الأحيان تنبت الحبة الواحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة.. ويمكن أن تكون الزيادة أكبر من ذلك. في بلادنا مثلا يُبذر الحب بمعدل ثلاثين كيلو جراما للفدان الواحد، وبحسب الآية الكريمة يمكن أن يكون المحصول ٣٠×٧٠٠= ٢١٠٠٠ كيلوا جراما أي واحد وعشرين طنا من القمح. بل تفتح الآية مجالات لزيادة المحصول أكثر من ذلك إذا أراد الله. ولو بلغ محصول الفدان هذا القدر، ولو دون زيادة فوقها.. فإن محصول القمح في العالم يمكن أن يكفي أضعاف ما في الأرض من سكان حاليا. وهناك كثير من المناطق في الأرض لا تزال بدون استزراع، ولو عُمرت وزرعت لزادت المحاصيل كثيرا. فعلا هناك مناطق في أفريقيا وأستراليا وكندا لم تُعمّر إلا قليلا. وهناك مساحات شاسعة في روسيا لم تعمر بعد. لو اهتم الناس بزراعة هذه المناطق مستفيدين من التجارب العلمية لحدث تغير عظيم في مقدار المحاصيل في العالم، ولاتسعت الرقعة المعمورة من الأرض أضعافا.

الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٦٣)

شرح الكلمات:

مَنّا: مَنَّ على فلان بما صنع: عدَّد له ما فعله من الصنائع، كأن يقول: أعطيتك وفعلت لك. تقول العرب: المنُّ أخو المنِّ.. أي أن الامتنان بتعديد الصنائع أخو القطع والهدم (الأقرب). والمن قد جاء هنا بهذا المعنى.

أذى-الأذى ما تأذّيت به؛ النجاسة. وفي حديث العقيقة (أميطوا عنه الأذى) يريد الشعرَ والنجاسة وما يخرج على رأس الصبي حين يولد يُحلق عنه يوم سابعه (اللسان).

التفسير: يقول الله تعالى إنكم إذا أنفقتم في سبيل الله فيجب ألا يؤدي ذلك إلى الاستكبار والخيلاء، وتقولوا لقد أعطينا كذا وضحَّينا بكذا.. لأن هذا سوف يضيع حسناتكم. قال الله عن الأعراب (يَمُنّون عليك أن أسلموا. قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم. بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) (الحجرات: ١٨).. إنهم يتصرفون وكأنهم قد أحسنوا إليكم بقبول الإسلام. قل: على رِسْلِكم، إنما هو فضل الله عليكم أن وفقكم للاعتقاد في دين صادق. كذلك من الجهل الشديد أن يتفاخر الإنسان على الآخرين بتضحياته المالية، لأن ذلك يعني أنه لم يقم بما فعل لوجه الله، وإنما لكي يتعالى ويُمنّ على الناس، وهذا يَحرمه من الثواب.

لقد نصح سيدنا المهدي جماعته وقال: (لا تظنوا أنكم تحسنون إلى الله وإلى من أرسله بإنفاق قدر من مالكم أو القيام بأي خدمة أخرى. بل إنه من إحسان الله إليكم أنه وفقكم لهذه الخدمة.. فحذار أن تتكبروا في قلوبكم أو تظنوا أنكم تقومون بخدمة مالية أو غير ذلك. أقول لكم مرة بعد أخرى إن الله تعالى لا يحتاج أبدا إلى خدمتكم، وإنما هو فضله عليكم أن وفقكم لهذه الخدمة.. لو أنكم قدمتم خدمات كثيرة حتى أنفقتم كل أموالكم وعقاراتكم فإنه لمما ينافي الأدب مع ذلك أن تظنوا أنكم قمتم بأي خدمة.. كل هذه الأفكار بعيدة عن الأدب. ولا يهلك أحد بأسرع مما يهلك سيئ الأدب (تبليغ الرسالة).

وبكلمة (أذى) أشار إلى أنه ينبغي ألا يعتبر الإنسان من يحسن إليهم عبيدا له بسبب إحسانه إليهم، ويستغلهم استغلالا، أو يتبرع أحد ببعض ماله ثم يقول: لقد كنت أنفقت كذا وكذا، ويجب الآن على الجماعة أن تساعدني وتزيل مشاكلي المالية. وقوله (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يبشر الذين ينفقون في سبيله خالصا

لوجهه أنهم –بسبب سمو سلوكهم –سوف يدخلون في أمان الله وحفظه، وينالون سكينة القلب فيما يتعلق بماضيهم، ويكون مستقبلهم باهرا أيضا.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى واللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٤)

شرح الكلمات:

قول معروف –كلمة خير ونصح، مثلا: يعامل السائل معاملة لينة، أو يقول له مثلا: ليس معنا الآن ما نعطيك.

مغفرة–تغطيةٌ؛ وستر خطأ أحد؛ العفو عن ذنبه؛ الصفح عما ارتكب من خطأ في حقه (الأقرب).

التفسير: نصح من قبل أن من قدم خدمة للدين، أو ضحى بماله لأولئك الذين يقفون حياتهم للدين ويهاجرون إلى المركز للإقامة هناك، أو أعان الفقراء بإنفاق ماله.. عليه ألا يجرح مشاعر هؤلاء مثلا بقوله: أنتم تعيشون على تبرعاتنا؛ أو أحسنت إليك بكذا وكذا. والآن يخبر هؤلاء المنفقين أن الأفضل من هذا الإنفاق أن يقول المرء كلمة خير.. كأن يقول.. سدّ الله حاجاتك وفتح عليك أبواب فضله. وهكذا يعامل السائل بالرفق والحب، ويواسيه، ويتعاطف معه بصدق.

وبقوله (ومغفرة) وجّه النظر إلى أنه إذا التمس أحد منك المعونة وذكر عندك حاجته فينبغي أن تستر حاله ولا تذكر ضعفه المالي وحاجاته هنا وهناك.

وتعني الآية أيضا أن الأمر بالمعروف، أو العبادة باللسان، أو الدعاء للآخرين وغفران خطاياهم.. أفضل من صدقه يتبعها سلسلة من الإيذاء للمحسَن إليهم. فالقيام بحسنات عقلية وبدنية خير لكم من أن تحاولوا إسداء الخير للآخرين بأسلوب لا يحقق ذلك بل يؤذيهم ويجرح مشاعرهم.

وبقوله (والله غني حليم) أشار إلى أنكم إذا لم تمتنعوا عن المن والأذى بعد الإنفاق.. فتذكَّروا أن الله (غني) وليس بحاجة إلى مالكم، ويمكن أن يأتي مكانكم بقوم آخرين يقومون بخدمة الدين أفضل منكم. وصفة (حليم) تشير إلى أن الله مع كونه

في غنى عن خدمتكم، إلا أن حلمه يقتضي أن يرحمكم وينجيكم من الهلاك. وقد قرَّب إليكم الجنة بهذه التعاليم، وأنتم مخيرون الآن بين أن تقوموا بما يجعلكم عرضة لصفة (الغني) الإلهية، وبين أن تنتفعوا بصفة (حليم) الإلهية، فتحسنوا العمل ابتغاء مرضاته، وليس للمكاسب الدنيوية.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرونَ عَلى شَيء مِمّا كَسَبوا وَالله لا يَهْدي القَوْمَ الكافِرينَ (٢٦٥)

شرح الكلمات:

صفوان –الصخر الأملس؛ ما لا ينبت شيئا من الحجارة ومن الأرضين. يقال: حجر صلد وأرض صلد (الأقرب).

التفسير: يقول عز وجل: أيها المؤمنون لا تضيعوا صدقاتكم بالمن والأذى. وإضاعة الصدقات يعني إضاعة ثمراتها ونتائجها.

وقوله (كالذي ينفق ماله رئاء الناس) يبين أنه مهما كان العمل حسنا فإن الإنسان إذا قام به مراءاة للناس فهذا سيئ جدا، لأن المتصدق تبطل صدقته عندما يتبعها بالمن والأذى، أما المرائي فتبطل صدقته بمجرد تفكيره في المراءاة. على أية حال، يقول الله تعالى إن الذي يُتبع صدقته بالمن والأذى تضيع صدقته مثلما تضيع صدقة المرائي، لأنه وإن لم يفكر في الرياء وقت الصدقة إلا أن فعله هذا يدل على أن في قلبه رياء كامنا، وإلا لم يمنن على أحد و لم يؤذه.

وعند الحديث عمّن ينفق ماله رئاء الناس أضاف قوله (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) لأن الإنسان أحيانا ينفق ماله أمام الناس لحضّهم على الإنفاق. كما قال الله في موضع آخر (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند

ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة: ٢٧٥)، فتؤكد هذه الآية أن القيام بالعمل الحسن علانية أمام الناس يُكسب المرء ثوابا بشرط أن تكون نيته حسنة.. أي حض الناس وترغيبهم في عمل الخير. أما إذا كانت نيته الرياء والفخر والمباهاة أمام الناس ضاعت أعماله الحسنة.. كمثل صخرة عليها شيء من التراب.. إذا نزل عليها المطر فإنه-بدل من أن ينبت نباتا صالحا مفيدا -يجرف التراب ولا يُبقي أي إمكانية لإنبات بذرة هناك.

الواقع أن الإنسان عندما يأتي بعمل حسن فإنه يريد أن يعلم الآخرين بعمله هذا، فالبعض يريد ذلك تفاخرا وتباهيا، بينما البعض يريد ذلك بنية أن يُنتفع بعمله هذا. لذلك مرة يقول القرآن: لا تكونوا كالذين ينفقون أموالهم رئاء الناس، ومرة أخرى يقول (وأما بنعمة ربك فحدِّث) (الضحى). وهذا الحديث عن نعم الله ليس رياء، وإنما لكي يسعى الآخرون لنيل هذه النعم. فليس كل إظهار للعمل رياء، وإنما يكون أحيانا من الرياء وأحيانا من الحسنات. فمثلا لو ارتدى المرء رداء بهيّا وخرج للناس ليتحدث الناس عن ثرائه فهذا تفاخر ورياء، أما إذا فعل ذلك وخرج يوم العيد أو يوم الجمعة عملا بسنة الرسول ﷺ وأَمْرِه فهذا ليس من الرياء في شيء، أو مثلا لو كان هناك وباء منتشر، وعند الإنسان كمية من الدواء، فيعلن للناس عن توافر هذا الدواء عنده.. فهذا لا يعتبر رياء، ولن يقول عاقل إنه يتظاهر بذكائه أمام الآخرين، بل إن كل شخص ينتفع من هذا الدواء الذي يقيه من المرض.

فيكون عمله رياء إذا لم يكن مؤمنا بالله واليوم الآخر، أي لا يبتغي ثوابا من الله تعالى، وإنما يريد أن يغبطه الناس. أما إذا قام الإنسان بعمل الخير أمام الناس وقلبه مطمئن بالإيمان بالله واليوم الآخر.. ترغيبا لهم في عمل الخير.. فلا يمنع الله من ذلك، بل يثني عليه ويقول: (إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) (البقرة: ٢٧٢).

والمعنى الثاني أن المرائي لا يكون مؤمنا بالله واليوم الآخر، إذ لا يَمُنُّ إلا الذي ليس مؤمنا بالله واليوم الآخر. لو كان يعتبر أن هذه النعمة من الله تعالى ومنه يرجو

الأجر.. لم يرغب في الثناء من الناس على عمله. كذلك لو اقتنع أنه ينال على إنفاقه في سبيل الله أجرا في اليوم الآخر ما فكر في أن ينال أجره من المسكين الذي أعانه بشيء من المعونة. لذلك استخدمت الآية كلمة (المن) وبإزائها (رئاء الناس)، وكلمة (أذى) ومعها كلمة (لا يؤمن بالله واليوم الآخر).. لأن المنَّ يكون وراءه مراءاة الناس، والأذى يحدث عندما لا يتوقع المرء جزاء من الله وليس في قلبه يقين بالله واليوم الآخر.

ثم قال (فمثله كمثل صفوان عليه تراب). وهنا بين الله مثالا آخر، فقال إن من ينفق رئاء للناس ينفق فعلا، ولكنه كمثل صخرة عليها تراب، فيترل عليها مطر شديد، وبدلا من أن يروي التربة لتنبت زرعا فإنه يجرفها ويزيل كل ما عليها من تراب. فهذا الذي يتصدق بماله كانت به بعض الخصال الطيبة، ولكنه بعد ما أتبع صدقته المن والأذى، أو فعلها رياء للناس فإنه حوّلها إلى سيئة قبيحة، وبدلا من أن تنفعه جعلها ضارة به. وكأنه أضاع الأمل –وإن كان ضئيلا– في أن ينبت نباتا من عمله الصالح.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٦)

شرح الكلمات:

ابتغاء–حالٌ أي (وهم يبتغون)، أو مفعولٌ له أي (ينفقون لابتغاء مرضاة الله).

تثبيتا –حالٌ، أي وهُم يثبِّتون أنفسهم، أو مفعول له أي لتثبيت نفوسهم على ما يريدون تثبيتها عليه من أفعال الخير.

بربوة –الربوة: ما ارتفع من الأرض (الأقرب).

الوابل–المطر الشديد والضخمُ القَطْرِ (الأقرب).
ضعفين–بالزيادة مرتين، وأصلها ضعفا ضعفا (الأقرب).
فطل–الطل: أضعف المطر؛ الندى (الأقرب).
التفسير: استُخدمت كلمة ربوة هنا، لأن المكان المرتفع يبقى دائما في مأمن من الفيضانات. عندما يترل المطر يجتمع الماء في الأراضي المنخفضة ويضر الزروع، ولكن الأماكن المرتفعة تأخذ كفايتها من الماء وتبقى الزروع بمأمن من الضرر، ويزداد محصولها ضعفين، ولو كان المطر قليلا أفاد الزرع أيضا.
بهذا التمثيل بيّن الله أن قلب المؤمن الصادق كبستان فيه أشجار خضراء من أفعاله الحسنة، كلما تصدق وعمل الخير نال نتائج مباركة طيبة لصدقته حتى وإن كانت قليلة المقدار كالندى. ولما كان أصحاب مثل هذه الصدقات القليلة من الفقراء، فمن الممكن أن يقولوا: صدقاتنا قليلة وليست كالوابل، لذلك قال الله: إذا لم تكن وابلا فالطلُّ فيه الكفاية، ويزيد البستان ثمارا. فكأن صدقات الأثرياء بمثابة وابل، وصدقات الفقراء – الذين قال الله في حقهم (لا يجدون إلا جهدهم) (التوبة: ٧٩)– فهي بمثابة الطلّ. ولما كانت قلوبهم عامرة بالإخلاص والتقوى.. لذلك قال الله إن إنفاقهم القليل أيضا سوف ينفع زرع أعمالهم ويجعله مخضرا نضرا؛ لأن الله يجازيهم بحسب ما في القلوب من إخلاص، وليس بحسب مقدار المال. وكان الصحابة –رضوان الله عليهم– من هذين النوعين. كان منهم الفقراء الذين ينفقون قليلا جدا، وكان منهم الأثرياء الذين ينفقون كثيرا. وكان من الممكن أن يدور بخلد الفقراء أن إنفاقهم لا يمكن أن يكون وابلا. فطمأنهم الله وقال: إذا لم يكن وابلا فالطل فيه الكفاية والنفع كنفع الوابل.
وبقوله (والله بما تعملون بصير) أشار إلى أن الله يرى حقيقة العمل؛ ولا يبالي بشكل العمل. فالذين ينفقون أقل من غيرهم، ولكنهم ينفقون بصدق حسب حالهم.. سوف يكون طلّهم نافعا نفع الوابل.

ولنتذكر أن الله ذكر هنا غرضين للإنفاق في سبيله: الأول–ابتغاء مرضاة الله، وهو الغرض الأعظم والهدف الحقيقي، والثاني –تثبيتا من أنفسهم. فالواجب أن يكون الغرض من الإنفاق هو كسب رضوان الله وتقوية القوم؛ إذ في رعاية الفقير نفع للمنفق نفسه. ذلك لأن الصدقات تهيئ الفرص لرقي الفقراء ليكونوا جزءا نافعا للمجتمع. فالأمم التي يكون معظم أفرادها منهارين لا يمكن أن تكون أمة قوية، لأن هؤلاء المتخاذلين يكونون عبئا عليها، ويعرقلون تقدمها نحو الازدهار. لذلك نرى الأمم الأوروبية التي لا علاقة لها بالله يُكثرون من الصدقات وفعل الخيرات، لأن ازدهار الفقراء عامل هام في ازدهار مجموع الشعب.

والمعنى الآخر لقوله (تثبيتا من أنفسهم) أن المؤمن عندما ينفق لمساعدة الضعفاء الذين لا سند لهم فإن الله يعينه ويهيئ له أسباب الازدهار. وإلى هذا المعنى أشار الرسول ﷺ بقوله (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) (مسلم، البر والصلة).

ثم هناك فائدة روحانية للإنفاق. فعندما ينفق الإنسان في سبيل الله فإن إيمانه يتقوّى ويزداد، لذلك نصحتُ جماعتي وقلتُ مرارا إن الضعيف من الناحية الدينية.. وإن لم يشترك في كثير من الحسنات الأخرى.. ينبغي أن نجعله يَشترك في التبرعات، لأنه عندما ينفق من ماله يزداد إيمانا وشجاعة على عمل الخير، مما يجعله يُقدِم على عمل الحسنات الأخرى.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢٦٧)

شرح الكلمات:

نخيل–أشجار النخل أو بستان النخل (الأقرب).

الكِبَر–كبُر الرجل أو الدابة: طعن في السن (الأقرب).

إعصار–ريح ترتفع بتراب بين السماء والأرض وتستدير كأنها عمود. وتُستخدم الكلمة للتعبير عن الشدة، يقول العرب: إن كنتَ ريحا فقد لاقيتَ إعصارا (الأقرب).. أي إذا كنت شديد المراس فقد وجدت من هو أشد منك.

التفسير: الآن يضرب الله تمثيلا آخر كي يبرز أهمية الإنفاق في سبيله. فيقول إذا كان عند المرء مال قليل ثم ضاع منه فإنه يتأسف عليه، ولكن إذا كان عنده بستان من النخيل والأعناب تجري خلاله الأنهار، ويؤتي أنواع الثمار، وكان المرء كبير السن، لا يأمل في البقاء حيًّا لمدة أطول، وذريته من صغار السن لا يُرجى منهم كسب أو جهد.. فهل يتمنى هذا الشيخ المسن أن يأتي إعصار على بستانه ويحرقه؟ لقد استخدم هنا كلمة إعصار لأنه شديد السرعة، عنيف الأثر، يحدث الحريق ويصعب إطفاؤه. ويُرى هذا المشهد في حرائق الغابات أثناء الأعاصير.

لو كان مال المرء قليلا لتعزى بأنه لا حرج في ضياعه، فإنه قليل ضئيل ويوشك على النفاذ، ولو لم يكن طاعنا في السن لأمّل أن أبناءه سوف يكبرون في حياته ويكتسبون المال ويعولون أنفسهم. ولكن إذا كان صاحب مال كثير، وهو في أرذل العمر، وله أولادٌ صغار.. فإنه لا يريد أبدا أن تدمر أمواله أو تحترق ثروته هكذا في حادث. ويمكن أن تقدروا صدمته إذا حلت به هذه المصيبة واحترق بستانه وضاعت ثروته كلها وصارت رمادا. هكذا يكون يوم القيامة حال أولئك الذين لا ينفقون أموالهم في سبيل الله في هذه الدنيا. لن يجدوا في أيديهم مالا ولن تنفعهم أولاد.. لذلك قال: فكروا في مصيركم. تستطيعون اليوم أن تفعلوا ما تريدون، ولكنكم لن تستطيعوا التصرف يوم القيامة. إذا أنفقتم اليوم أموالكم في سبيل الله فسوف تدَّخر لكم عند الله وسوف تنتفعون منها، وإلا تهلكون.

استخدَم في الآية تعبيرا (ذرية ضعفاء) للتحذير خاصة.. يقول: إذا كنتم لا تريدون لأولادكم في هذه الدنيا –وهي حياة محدودة –أن يؤول حالهم إلى عدم الحيلة.. فلماذا لا تهتمون بنفوسكم التي تكون يوم القيامة أضعف من الطفل الصغير؟ لماذا لا تفكرون ولا تتدبرون؟ فأين من العقل أن تضيعوا نعمة الإيمان أو نعمة رضوان الله

التي سوف تنفعكم أنتم.. في وقت تكونون أضعف حيلة من الطفل الصغير؟ فاحذروا من الآن، وادَّخِروا من الحسنات قبل أن يأتيكم الموت.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٨)

شرح الكلمات:

الخبيث–النجس؛ الرديء المستكره (الأقرب).

لا تيمموا–تيمَّم الشيءَ: تعمَّدَه. فمعنى قوله (ولا تيمموا الخبيث) أي لا تختاروا الشيء الرديء عن قصد لتنفقوه في سبيل الله.

أن تُغمضوا –أغمض عينيه: أطبق أجفانهما. أغمض عن الشيء: تجاوزه. أغمض على كذا: تحمّله ورضي به (الأقرب). فمعنى (إلا أن تغمضوا فيه): ١–تأخذوه مغمضي العين؛ ٢–تتجاوزوا عن فعله هذا وتقبلوا ما يعطيكم؛ ٣–تأخذوه لأجْله.

التفسير: نصح الله هنا المؤمنين أن ما ينفقون في سبيله يجب أن يكون مما كسبوه بأيديهم ومن خير مالهم، لا أن يستولوا على أموال الآخرين وينفقوا منها. هناك من الناس من يجدون في قلوبهم حماسا لإعانة الفقراء، فيشرعون في السرقة وقطع الطرق، ثم ينفقون معظم ما يجمعونه من هذا الطريق على الفقراء. والذين لا يقفون على فلسفة الأخلاق يمدحون عموما هؤلاء السارقين. ويقولون: إن هذا السارق رجل طيب لأنه يعين الفقراء. يقول الله: ليس من الخير في شيء أن يسرق الإنسان أموال الآخرين ويستولي عليها ثم يوزعها على الفقراء، فهذا ليس الطريق الصحيح لإعانة الفقراء، وإنما واجبكم أن تُنفقوا مما كسبتم بأيديكم، ثم اتركوا الباقي لله تعالى. إن إعانة الفقراء بسلب أموال الآخرين هي بمثابة إطفاء النار بالزيت. إذا رأيتم كثرة الفقراء فإطعامهم ليس واجبكم، وإنما عليكم أن تنفقوا عليهم بقدر استطاعتكم، ودَعُوا الأمر بعد ذلك لله.

وقوله (من طيبات ما كسبتم) لا يعني أن بعض أموال المؤمن حلال وبعضها حرام، ولا يعني أن الآية تطلب منه ألا ينفق من الحرام وإنما يختار الحلال فقط. بل الحقيقة أن (طيبات) هي صفة (ما كسبتم) فالمراد أن ما كسبتم هو من الحلال؛ وعليكم أن تنفقوا منه في سبيل الله، سواء كان مالا أو علما أو غيرهما. وكأن قوله (من طيبات ما كسبتم) ثناء على المسلمين، أشار فيه بأن مالهم حلال وطيب دائما، وليس فيه شائبة.

ثم يجب أن نعلم أنه لم يأت بكلمة (طيبات) مقابل (حرام)، وإنما جاء بها مقابل (خبيث).. والمعنى أنكم لن تكونوا منفقين في سبيل الله حقا ما لم تنفقوا من أفضل أموالكم وأحبها. قد يعطي الإنسان الفقراء ما عنده من أشياء مستعملة، ولا مانع من إعطائها، كأن يعطي بعض ثيابه المستخدمة لفقير ينتفع بها، وهذا ليس ممنوعا بل يثاب عليه؛ ولكنه بإعطاء هذه الأشياء المستعملة لا يكون من العاملين بأمر الله (أنفقوا من طيبات ما كسبتم)، وإنما يؤدي واجب الإنفاق في سبيل الله إذا أعطاها وهي صالحة للاستخدام، وفي حالة جيدة، ومن خير ماله، لكي تكون لتضحيته عظمة.

وقوله (ومما أخرجنا لكم من الأرض).. أي أنفقوا من المستخرَج من الأرض. الحقيقة أن هناك نوعين من المال: الأول – ما يكسبه الإنسان بالتجارة والوظيفة، والثاني: ما وضعه الله من الخيرات في الأرض ويستخرجها الإنسان ببذل الجهد.. مثل الزروع والأشجار والمعادن والأحجار الثمينة في الأرض، فكل هذه تندرج تحت (ومما أخرجنا لكم من الأرض). يقول الله: سواء كسبتم المال بتجارة أو حرفة أو وظيفة أو مما تنبته الأرض أو مما يخرج منها من معادن.. فعليكم أن تنفقوا من كل ذلك جزءًا في سبيل الله.

وفي قوله (ولا تيمموا الخبيث) استخدم كلمة (الخبيث) على إطلاقه دون تحديد لما هو خبيث. فيمكن أن يفسَّر بعدة معان منها:

أولا-لا تعطوا ما يكون في ذاته خبيثا لا يصلح للاستعمال لا لكم ولا لغيركم. وهذا لا يندرج تحته ما لا يصلح للمعطي ولكنه يصلح للمعطى له.

وثانيا–لا تعطوا شيئا يكرهه من تعطونه إياه. وبذلك علَّم أنكم إذا أعطيتم أحدا شيئا فينبغي مراعاة مشاعره، كيلا يكدر خاطره أو كيلا يُحرَم من الانتفاع من الشيء.

وثالثا–بناء على معنى التيمم..لا تتحروا للإنفاق أشياء غير مرغوب فيها لرداءتها.

وقوله (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يعني لا تنفقوا في سبيلٍ شيئا إذا أُعطيتموه لم تقبلوه إلا خجلا.

وقوله (واعلموا أن الله غني حميد) بيّن فيه أن هذه الصدقات إنما هي لصالحكم، وليس لله حاجة إليها. فإذا أنفقتموها في سبيله أو آتيتموها عباده فكأنكم قدمتموها له سبحانه–ولذلك عند إنفاقها ضعوا في الاعتبار عظمة الله. إنكم عندما تتعاملون مع الناس في الدنيا تراعون مقامهم ومترلتهم، مع أنهم خلق مثلكم، وإذا أنفقتم الصدقات تريدون بها رضوان الله فلماذا لا تراعون عظمته وشأنه جل وعلا. إنه (غني) ليس بحاجة إلى أي مساعدة منكم، وإنما أنتم محتاجون إليه. ثم إنه تعالى (حميد) يستحق كل حمد، فعامِلوا عباده معاملة محمودة كي يعاملكم بمثلها.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦٩)

شرح الكلمات:

يعدكم–وعده الأمر: قال له إنه يجزيه له أو يُنيلُه إياه. ويقال: وعدت الرجلَ خيرًا أو شرّا. قال الأزهري: كلام العرب: وعدت الرجل خيرا ووعدته شرّا: وأوعدته خيرا وأوعدته شرّا (الأقرب). وغلب استخدام (أوعد) في الشر ما لم يكن هناك قرينة صارفة. وبالمثل يكثر استخدام (وعد) في الخير ما لم تكن هناك قرينة صارفة إلى معنى الشر.. كأن يُذكر معه مفعول به، مثلا يقال: وعده الأمير بعشر جلدات، فالمعنى هنا بالشر. وكذلك في هذه الآية ورد بمعنى الشر لأن المفعول به هو الفقر وهو شر، والمراد يخوِّفكم الشيطان الفقر.

الفحشاء–كل ما يشتد قبحه من الذنوب؛ البخل (الأقرب).

التفسير: يقول الله: إن الشيطان يخوِّفكم الفقرَ، سواء كان تخويفه من تضحيات المال أو تضحيات النفس أو من أي نوع آخر. يقول لكم الشيطان إذا أنفقتم المال في سبيل الله فلن يبقى لكم شيء لسد حاجاتكم، ويترل بكم الفقر وتضطرون لسؤال الناس؛ أو إذا بذلتم أنفسكم هلكتم ودمِّرتم. وإلى جانب ذلك يحرضكم الشيطان على الفحشاء، ويحثكم على ارتكابها ولو بإنفاق المال دون هوادة. فكأن الإنسان إذا سلك طريق الخير يهُبّ الشيطان ناصحا مشفقا يمنعه عن سلوكه؛ أما إذا اتجه إلى الشر شجّعه الشيطان على المضيّ قدما. فالمؤمن يضحّي والكافر أيضا يضحّي، ولكن الأول يضحي لوجه الله تعالى، أما الثاني فيضحي لأمور تنأى به عن الله تعالى.

والمعنى الثاني أن الشيطان يَعِد الإنسان من حيث الظاهر بالراحة والسكينة والمال والرخاء، فيقول:إذا لم تنفق في سبيل الله صنت مالكَ وأصبحت ثريّا.. تحوز الأملاك والعقارات، وتجمع أنواع المتاع والأثاث. ولكن الواقع أنه يدل الإنسان على طريق الفقر والدمار والذل والهلاك. ذلك أن الأمم التي لا تعتني بالفقراء وتصرف همها إلى متعتها وراحتها تدمَّر وتُباد..كما هو الظاهر من حال الأمم الميتة التي صارت كالجثث الهامدة.

ثم يقول: (ويأمركم بالفحشاء) والفحشاء ما هو واضح القبح والفحش، أو هو البخل. فالمعنى أن ما يأمركم به الشيطان واضح العيب والفحش. فالمعنى الأول: إنه يأمركم بالبخل مع أن البخل عادة قبيحة؛ وكان العرب خاصة يكرهون البخل كراهية شديدة، أو المعنى أنه يأمركم دائما بما هو سيئ، فكأنه يأمر بما هو سيئ فعلا وأيضا بما هو ضار بالإنسان في كرامته وعزته. وهذان الأمران هما اللذان يمنعان الإنسان من فعل شيء. فإما أن ينظر الإنسان إلى عزته وجاهِه، أو ينظر إلى منفعته.

وفي مقابل ذلك يقول تعالى (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا).. أي أنه سوف يستر عيوبكم، ويمحو خطاياكم ثم يعطيكم أكثر من ذي قبل. ولم يطلق كلمة (مغفرة) حتى لا يُظن أنها من العباد للعباد، وإنما قال (مغفرة منه) ليشير إلى أنها منه سبحانه، ولم يعد الله بالمغفرة فقط، بل يزيد عليها الفضل.. أي يكتب لكم مزيدا من الازدهار ويفتح عليكم أبواب البركات.

وإذا كان المراد بالفقر في قوله (يعدكم الفقر) هو الإفلاس والاحتياج، فالمعنى أن الشيطان يعتبر الفقر شيئا خطيرا، أما الله تعالى فيرى الإثم هو الشيء الخطير. لذلك أولا قدَّم الفقر.. أما هنا فقدم المغفرة.. وهكذا بيّن الفرق بين الجماعات الشيطانية والجماعات الربانية فيما يتعلق بتعظيم الأشياء.

وكان الخليفة الأول عند تفسير قوله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) يضرب مثالا ما حدث في ولاية (أوده) بالهند، ذلك أنه لما وقع الخلاف بين الإنجليز وحاكم (أوده) حذر الإنجليز كبار هذه الولاية ممن كان لهم أموال في البنوك الإنجليزية في (كلكتا)، وهددوهم أنكم لو تصديتم لنا وساندتم الحاكم ضدنا فسوف نصادر أموالكم في بنوكنا. فسكت هؤلاء ولم يحركوا ساكنا خوفا من الفقر، وأخيرا جاء الإنجليز واعتقلوا حاكم الولاية.

ولكن الأمم الغربية الأوربية معتادة على التضحية، ولا تبالي بهذه التهديدات. ففي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)كان هناك الملايين من أموال الإنجليز في بنوك ألمانيا، وبالمثل كان للألمان الملايين عند الإنجليز، فلم يبالوا بذلك ودخلوا الحرب بكل شدة وقوة. فالأمم الحية تعرف أن الأموال للإنفاق، فلا تتردد في إنفاقها، ولكن الأمم التي تبخل بالأموال ولا تنفقها على الفقراء فإنها تتضرر.

يقول الله هنا: إن الشيطان يخوفكم الفقر، ولكن نتيجة اتباعه هو الدمار. عندما تعاملون إخوانكم الفقراء معاملة سيئة فإن أعداءكم سوف يرمونكم بخسة الطبع، إذ لا تراعون الفقراء منكم. وإزاء ذلك يعدكم الله أنكم إذا تصدقتم فسوف تنالون مغفرة منه. أي أنكم عندما تنهضون بفقرائكم وتنفقون عليهم فسوف تختفي عيوبكم، لأن من ينفع الناس يستر الناس عيوبه.

أما إذا أخذنا بالمعنى الآخر وهو أن ما يأمركم به الشيطان يوقعكم في الفقر.. فإن قوله تعالى (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) يعني أن ما يأمركم به الله نتيجته الأولى أن الناس سوف تستر عيوبكم، لأنكم سترتم عيوبهم، وهكذا تصبحون من الصالحين عند الناس وعند الله أيضا. ونتيجته الثانية أنه في هذه الدنيا أيضا تزداد أموالكم، لأن القوة الاقتصادية للقوم تزداد إذا أنفق الأثرياء في المشاريع القومية وفي تحسين أحوال الفقراء، فينتفع الفرد نفسه ماديا أيضا. أما في الآخرة فإن ما يعطيه الله إياه جزاء على إنفاقه لا يتصوره خيال.

ثم يقول (والله واسع عليم).. أي إذا اتبعتم أوامر الله، فإن عنده كل شيء وسوف يجزل لكم العطاء، بل لا يمكن أن تقدروا سعة وعده بالمغفرة، ولا أن تتخيلوا معنى وعده بالفضل لأنه واسع. ثم إنه عليم.. مطلع على كل صغيرة وكبيرة تأتون بها، ولا يخفى عليه شيء، وسوف يُعِينكم بطرق لا تخطر ببالكم.

تدبروا هذه الآية وتأملوا ترتيب كلماتها الرائع. ففي الجزء الأول قدّم (الفقر) على (الفحشاء)، وفي الجزء الثاني قدم (المغفرة) على (الفضل)، مع أن الظاهر يقتضي أن يقدم الفضل على المغفرة لأنه يقابل الفقر. ثم يذكر المغفرة لأنها تقابل الفحشاء. لهذا الترتيب سببان: ظاهري، وروحاني. الظاهري هو أن الشيطان أوَّلا يخوف من الفقر ثم يأمر بالفحشاء؛ ونتيجة لذلك ينصبُّ على القوم الانحطاط والزوال، ثم يشتهر اسمه بالعار في العالم كله. وإزاء ذلك يعامل الله هذا القوم أولا بالمغفرة ثم يتزل عليهم فضله حتما.. ذلك إذا تجاهلوا أمر الشيطان وعاملوا إخوانهم الفقراء بالحسنى. هذا هو السبب الظاهري، ولكن هناك سببا روحانيا لهذا الترتيب. ذلك أن الشيطان يهتم بالمال أكثر من العزة والصيت، لذلك عندما ذكر هنا ما يفعله الشيطان ذكر المال أولا، ثم ذكر العزة والصيت. ولكن تأتي العزة والسمعة عند الله في المرتبة الأولى، ولذلك عندما ذكر ما يفعل الله تعالى فإنه ذكر المغفرة أولا ثم الفضل.. أي أنه فضّل الصيت والشرف على المال.

كما أنه بهذا الترتيب بيّن الفرق بين الأديان الصادقة والأديان الباطلة، فهذه تُؤثر المادة والدنيا، أمّا الصادقة فتُؤثر الدين.. لأن الآية تصرح بوضوح تام أن هناك من

ينفق الأشياء الرديئة خوفا من الفقر، وهناك مَن ينفق الحسن الطيب الأفضل لكي يزداد إيمانه ويرتقي فيه.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ(٢٧٠)

شرح الكلمات:

الألباب –اللُّب: خالص كل شيء؛ العقل؛ الخالص من الشوائب أو ما زكا من العقل. فكل لبٍّ عقلٌ ولا عكس (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إنها أسرار الرقي التي يكشفها لكم رسولنا مصداقا للدعاء الإبراهيمي الذي سأل فيه أن يبعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة.. أي يكشف عليهم أسرار الرقي القومي. وتذكروا أن تعلم الحكمة ليس شيئا هينا، إنما إذا أُعطيَ أحد شيئا من الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا. إذا وُفق المرء لعمل حسن فهذا خير، ولكن أن يطلع على أسرار الرقي في الحسنات أو أن يعرف حِكم الأمور فهذا خير كثير، بل هو بمثابة أن يجد الإنسان منجما للجواهر الثمينة كالماس. فليس من شك أن كل تعليم حسن موجودٌ في القرآن الكريم، ولكن إذا أدرك الإنسان الحِكم وراء هذه التعاليم ازداد حماسا للعمل. أما في حالة عدم معرفته بها فإنه يتكاسل في العمل بها. فالاطلاع على حِكم الأوامر نافع ومفيد جدا. ولكن الناس–يقول الله –لا يتذكرون ولا ينتصحون رغم ذلك، إلا الذين لا ينظرون إلى المصالح الشخصية وإنما عينهم على المنافع القومية، فهم الذين ينتفعون من هذه الأمور.